

الدين .. والدجل
(١٨)

دعوها.. فإنها منتنة

مقالات حول الشعوبية والقومية والتمييز العنصري

د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

[دعوها، فإنها منتنة] .. ليست هذه الجملة عنوانا صحفيا مثيرا، ولا كلمة اعتباطية خالية من أي دلالة حقيقية.. بل إنها كلمة تعبر عن حقيقة من حقائق الوجود، وسنة من سنن الكون.

ذلك أن الذي نطبق بها ليس صحفيا، ولا كاتبا، ولا باحثا، ولا فيلسوفا، ولا عالم اجتماع، ولا عالم نفس.. بل الذي نطق بها هو من لا ينطق عن الهوى.. رسول الله ﷺ.. ذلك الذي لا يقول إلا الحق في رضاه أو غضبه..

ولذلك فإنها تعبر عن الحقيقة بكل معانيها وتجلياتها..

فالذي يدعو إلى العصبية والعرقية والهوية التي تميزه عن سائر إخوانه في الإنسانية إنما يدعو في الحقيقة إلى القذارة والنتانة .. ذلك أنه يدعو إلى عالم الطين والحمأ المسنون، ويغفل عن الروح والعوالم العلوية التي صدرت منها.. لذلك تفوح من أحاديثه رائحة الطين والحمأ المسنون..

ولهذا دعا رسول الله ﷺ إلى الترفع عن هذا العالم، والنظر إلى الإنسان باعتبار جوهره وحقيقته الروحية، لا حقيقته الجسدية التي يؤدي بها دوره التكليفي المؤقت في هذه الحياة الدنيا.

الدين.. والدجل

(18)

دعوها.. فإنها منتنة

مقالات حول الشعوبية والقومية والتمييز العنصري

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1439 . 2018

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

دعوها، فإنها منتنة..

ليست هذه الجملة عنوانا صحفيا مثيرا، ولا كلمة اعتباطية خالية من أي دلالة حقيقية.. بل إنها كلمة تعبر عن حقيقة من حقائق الوجود، وسنة من سنن الكون.

ذلك أن الذي نطبق بها ليس صحفيا، ولا كاتبا، ولا باحثا، ولا فيلسوفا، ولا عالم اجتماع، ولا عالم نفس.. بل الذي نطق بها هو من لا ينطق عن الهوى.. رسول الله ﷺ.. ذلك الذي لا يقول إلا الحق في رضاه أو غضبه..

ولذلك فإنها تعبر عن الحقيقة بكل معانيها وتجلياتها..

فالذي يدعو إلى العصبية والعرقية والهوية التي تميزه عن سائر إخوانه في الإنسانية إنما يدعو في الحقيقة إلى القذارة والنتانة.. ذلك أنه يدعو إلى عالم الطين والحمأ المسنون، ويغفل عن الروح والعوالم العلوية التي صدرت منها.. لذلك تفوح من أحاديثه رائحة الطين والحمأ المسنون..

ولهذا دعا الناصح الأكبر للبشرية رسول الله ﷺ إلى الترفع عن هذا العالم، والنظر إلى الإنسان باعتبار جوهره وحقيقته الأبدية، لا باعتبار المرحلة القصيرة التي لبس فيها هذا الطين، ليؤدي دوره التكليفي المؤقت، وليختار العالم الذي يعيش فيه.

وقد توالت التحذيرات النبوية من النظر إلى الإنسان بهذا الاعتبار، فكان يستعمل كل وسائل الترغيب والترهيب، ليقضي على تلك الحمية الجاهلية التي كانت تصنف البشر بحسب ألوانهم ولغاتهم وأعراقهم

وتـــواريخهم وجغـــرافيتهم وأحجـــام جمـــاجهم.. وكـــأنهم مسؤولون ومحاسـبون على شـيء ليس في طـاقتهم، ولا في وسعهم.

ومن تلك التحـذيرات، تحـذيره ﷺ من أخطـر تجليـات العنصـرية العرقيـة، وهي العصـبية الجاهليـة، الـتي كـانت تـدعو إلى قتـال الأعـراق بعضـها لبعض، وإلغـاء بعضـها لبعض، قال ﷺ: (ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منـا من قاتل على عصبية، وليس منـا من مـات على عصـبية) (1)، فهذا الحديث الخطير يخرج من الأمة من كـان يحمـل أدنى بـــذرة من بـــذور العصـــبية والعرقيـــة والجهويـــة والطائفيـــة، والـــتي تحـــول بينـــه وبين التجـــرد الحقيقي للانتساب للدين، فلذلك لم تكن نسبته للدين نسبة كافيـة، فهو مع الدين في عقائده وشعائره، ولكنـه ليس معـه في قيمه وأخلاقه، وأولها إنسانيته وعالميته.

وهكذا حذر رسول اللـه ﷺ من التفـاخر بين الأعـراق، والذي يدعو إلى الضغينة والأحقاد، قال ﷺ: (إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخـر أحـد على أحد)(2)

ولذلك كان ﷺ يصحح المفاهيم كل حين حـول حقيقـة الإنســان، وحقيقــة العلاقــات الــتي ينبغي أن تســري بين البشـرية، ومن ذلـك قولـه ﷺ: (إن اللـه قـد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآبـاء، مـؤمن تقى وفـاجر شـقى، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخـرهم بـأقوام إنمـا هم فحم من فحم جهنم، أو ليكـونن أهـون على اللـه

1() أبو داود (4/332، رقم 5121).

2() رواه مسلم (4/2198 رقم 2865) ، والبزار (8/424، رقم 3495)

من الجعلان التى تدفع بأنفها النتن)[1]

وهذا الحديث الشريف مدرسة في بابه، وهو خطاب عقلي ونفسي لكل عنصري ترك الحقيقة الإنسانية السامية، وراح يبحث في عالم الطين، وهو وحده كاف لمن تأمله للتخلص من كل القيود التي تتثاقل به الأرض، وتجعله يرى الحياة كما يراها الجعلان الذي يدفع بأنفه النتن.

وبناء على هذا، فإن القاعدة التي تحكم المسلمين، والتي نصت عليها النصوص المقدسة، هي ما عبر عنه رسول الله ﷺ في حجة الوداع في تلك الخطبة الشاملة لكل القيم الإنسانية الرفيعة، فقد قال ﷺ: (يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية، وتعاظمها بآبائها، الناس رجلان: بر تقي كريم على الله عز وجل، وفاجر شقي هين على الله عز وجل، الناس كلهم بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: 13])[2]

لكن هذه التوجيهات النبوية لم تلق العناية الكافية، ومن الأجيال الأولى من المسلمين، حيث بدأ التصنيف العرقي بمجرد وفاة رسول الله ﷺ، وحصل الخلاف بين بعض المهاجرين وبعض الأنصار ممن لم يتشربوا القيم الإسلامية تشربا كافيا.

1() رواه أحمد (2/523، رقم 10791) ، وأبو داود (4/331، رقم 5116) ، والبيهقى (10/232، رقم 20851) . وأخرجه أيضا: الترمذى (5/735، رقم 3956)

2() عبد بن حميد (795) والترمذي (3270).

وزاد حكم الطلقاء للمسلمين المسألة تعقيدا، حيث عادت الجاهلية العرقية بأثواب مختلفة، أهمها ذلك التعالي الذي أبداه بعض العرب تجاه الموالي، وكان بداية لنشوء القومية العربية الممتلئة بالعنصرية المقيتة.

وقد ذكر المؤرخون والأدباء الكثير من المظاهر الاجتماعية لذلك(1)، ومنها أن نافعا بن جبير بن مطعم طلب من رجل من أهل الموالي من غير العرب أن يصلي به، فاستفسروا عن سبب ذلك؛ فقال: إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه.

ورووا أنه كان إذا مرّت به جنازة قال: من هذا؟ فإذا قالوا قرشي؛ قال: واقوماه! وإذا قالوا: عربي؛ قال: وابلدتاه! وإذا قالوا: مولى؛ قال: هو مال الله، يأخذ ما شاء ويدع ما شاء.

وذكر ابن عبد ربه والجاحظ وغيرهما بعض مظاهر التمييز العنصري التي كان يبديها القوميون من العرب تجاه العجم، فذكروا أنهم كانوا يقولون: (لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار، أو كلب أو مولى)، وأنهم (كانوا لا يكنونهم بالكنى، ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب، ولا يمشون في الصف معهم، ولا يتقدمونهم في الموكب، وإن حضروا طعاما قاموا على رؤسهم، وإن أطعموا المولى لسنّه وفضله وعلمه أجلسوه في طرف الخوان؛ لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب، ولا يدعونهم يصلون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب، وإن كان الذي يحضر غريرا؛ وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها، وإنما يخطبها إلى مواليها؛ فإن رضي زوّج وإلا ردّ، فإن زوّج الأب والأخ بغير رأي مواليه فسخ النكاح،

1() انظر العقد الفريد (3/ 360)

وإن كان قد دخل بها كان سفاح غير نكاح)(1)

بل إن الأمر بلغ أخطر من ذلك، فقد روي أن معاوية دعا الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب، فقال: (إني رأيت هذه الحمراء ـ يقصد غير العرب ـ قد كثرت، وأراها قد طعنت على السلف، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان؛ فقد رأيت أن أقتل شطرا وأدع شطرا لإقامة السوق وعمارة الطريق؛ فما ترون؟ فقال الأحنف: أرى أن نفسي لا تطيب؛ أخي لأمي وخالي ومولاي، وقد شاركناهم وشاركونا في النسب. فظننت أني قد قتلت عنهم؛ وأطرق.فقال سمرة بن جندب: اجعلها إليّ أيها الأمير، فأنا أتولى ذلك منهم وأبلغ منه.فقال: قوموا حتى أنظر في هذا الأمر.. قال الأحنف: فقمنا عنه وأنا خائف، وأتيت أهلي حزينا؛ فلما كان بالغداة أرسل إليّ، فعلمت أنه أخذ برأيي وترك رأي سمرة) (2)

بل إن الأمر لم يقتصر على عوام الناس وخاصتهم، بل تعداه إلى أهل الدين منهم، وخصوصا أولئك الذين حصروا الدين في الطقوس والشعائر، وغفلوا عن الأخلاق والقيم، فقد رووا أن عامر بن عبد القيس ـ مع نسكه وزهده وتقشفه وإخباته وعبادته ـ كلّمه حمران مولى عثمان بن عفان عند عبد الله بن عامر صاحب العراق في تشنيع عامر على عثمان وطعنه عليه، فأنكر ذلك، فقال له حمران: لا كثّر الله فينا مثلك! فقال له عامر: بل كثّر الله فينا مثلك! فقيل له: أيدعو وتدعو له؟ قال: نعم، يكسحون طرقنا، ويخرزون خفافنا، ويحركون ثيابنا. فاستوى ابن عامر جالسا، وكان متكئا، فقال: ما كنت

---

(1) العقد الفريد (3/ 361)

(2) العقد الفريد (3/ 361)

أظنك تعرف هذا الباب، لفضلك وزهادتك. فقال: ليس كل ما ظننت أني لا أعرفه، لا أعرفه.

وليت الأمر اقتصر على كل هذا، بل تعداه إلى الفقهاء أنفسهم، والذين راحوا يدعون إلى العصبية العربية من غير شعور، وكأنها حقيقة مطلقة، حتى اعتبروا ما دل من النصوص السابقة على الأخوة العامة بين المؤمنين خاصا بالآخرة، فقد نقل بعضهم قول مالك قوله: لا تعتبر الكفاءة إلا في الدين، واستدلاله من القرآن والسنة على ذلك فرد عليه بقوله: (قلنا: المراد به في حكم الآخرة وكلامنا في الدنيا)، قال الشارح: (وإلا ففي الدنيا ثابت فضل العربي على العجمي بالإجماع)[1]

ولسنا ندري أي إجماع يدعيه، ولا أي مستند لذلك الإجماع، بل الإجماع هو ما نص عليه رسول الله ﷺ وما دل عليه القرآن الكريم، وما أيدته قواعد الدين ومقاصده الكلية.

وقد نقل بعضهم مذهب الغزالي في النسب، ورد عليه بقوله: (قال الإمام والغزالي: وشرف النسب من ثلاث جهات: جهة النبوة وجهة العلم وجهة الصلاح المشهور، ولا عبرة بالانتساب لعظماء الدنيا والظلمة المستولين على الرقاب، وإن تفاخر الناس بهم)، قال الرافعي: ولا يساعدهما عليه كلام النقلة في العظماء، فيعتبر الانتساب إليهم ... وكيف لا يعتبر وأقل مراتب الإمرة ونحوها أن تكون كالحرفة؟ وذو الحرفة الدنيئة لا يكافئ النفيسة)[2]

1() تبيين الحقائق :2/128.

2() شرح البهجة:4/124.

وقد نشأ عن فتح هذا الباب العصبية المحرمة بين العرب وغيرهم، بل بين العرب أنفسهم، بل نجد هذه العصبية قد انتقلت لكتب الفقه نفسها، ففي كتاب منها يقول صاحبه: (سائر العرب بعضهم أكفاء لبعض، وبنوا باهلة ليسوا بأكفاء لعامة العرب؛ لأنهم يعرفون بالخساسة قيل: إنهم يستخرجون النقي من عظام الميتة ويأكلونه قال الشاعر:

إذا قيل للكلب يا باهلي عوى الكلب من لؤم هذا النسب)[1]

فهؤلاء الفقهاء ـ مع احترامنا لهم ـ تركوا الأدلة الصريحة الصحيحة لقول شاعر، ويمكنهم لو ساروا على منواله أن يهجوا القبائل جميعا، بل الخلق جميعا.

وقد كان كل هذا التعصب للقومية العربية سببا في ظهور ما أطلق عليه [الشعوبية]، وهي التعصب للأعراق المختلفة من الفارسية والكردية وغيرها، والتي لا نزال نعيش آثارها إلى اليوم.

بناء على هذا كانت هذه المقالات محاولة للدعوة إلى العودة إلى الإنسانية التي دعت إليها مصادر الدين المقدسة، وقد ركزت فيها خصوصا على [الدعوة الأمازيغية] باعتبارها نموذجا عن الحركات العنصرية القومية، ولكونها حركة جديدة مقارنة بغيرها من الحركات، ولكونها بدأت تتشكل وتنتشر في المغرب العربي، لتنحرف بلغته السليمة، وفطرته النقية، لتحوله إلى أداة من أدوات التفتيت والصراع.

وأحب أن أنبه إلى أن مقصدنا من هذه المقالات هو

---

[1] الجوهرة النيرة:2/11،وانظر:فتح القدير:3/298.

النصيحة لا غير، فأنا شخصيا أعرف الكثير من الأمازيغ المؤمنين الطيبين الذين يفخرون بانتمائهم للحضارة الإسلامية في ثوبها العربي، ولا يرون أي حاجز بين حبهم للعربية وحرصهم عليها، وبين كونهم أمازيغ يعيشون بين قومهم بحسب العادات التي تعودوا عليها، واللغة التي ينطقون بها.

لكن حديثي مع أولئك الذين يريدون خلع الثوب العربي عنهم، مع كونهم يعرفون العربية، ويتقنونها مثلهم مثل سائر العرب، لكنهم ينظرون إليها باستكبار، بل ينظرون إليها كما ينظرون إلى الاستعمار، ويودون لو أن كل الألسن عجمت حتى لا يُنطق في الشمال الإفريقي إلا باللسان الأمازيغي.

وقد وصل الحقد ببعضهم إلى درجة تبني القيم النازية والصهيونية من الدعوة إلى طرد العرب، أو ربما إبادتهم في المستقبل حتى يخلص الشمال الإفريقي للأمازيغ.

وقد وجدت هذه الدعوات رعاية كافية من دوائر الاستكبار العالمي التي راحت تدعمها بكل صنوف التدعيم، فتنشر المظلومية الأمازيغية، كما نشرت قبل ذلك المظلومية اليهودية.. لتحول أرضنا بعد ذلك إلى محرقة لا تقل عن محرقة اليهود.

من المستحيلات العقلية الجمع بين الرؤية العرفانية التوحيدية للكون، والرؤية القومية، فهما على طرفي نقيض.. بل هم رؤيتان متوازيتان، يستحيل أن يجتمعا في عقل أو قلب واحد.

ذلك أن الرؤية القومية هي نوع من تضخم الأنا.. بل هي تجل من تجليات كبريائها وغرورها وعجبها.. حيث تتصور أن الكمال فيما ارتبطت به، والنقص فيما ابتعدت عنه، وبذلك تجعل نفسها المركز والمحور والقطب الذي تدور حوله الحقائق..

وهي بذلك، ووفق الرؤية التوحيدية العرفانية ليست سوى رؤية شركية، لأنها تجعل الأنا والقومية شريكا لله تعالى.

بينما الرؤية العرفانية التوحيدية تنظر للكون من زاوية مختلفة تماما.. فرحلة العارفين تنطلق من الكون إلى المكون، كما قال ابن عطاء الله:(لا ترحل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرحى يسير والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون: ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم:42)

ولذلك تعتبر سكون الإنسان للأشياء، وفرحه بها، وعدم عبوره منها إلى خالقها وقوفا، بل سقوطا، كما عبر عن ذلك بعضهم، فقال: (لو أن رجلا دخل إلى بستان فيه من جميع ما خلق الله تعالى من الأشجار، عليها من جميع ما خلق الله تعالى من الأطيار، فخاطبه كل طائر منها بلغته، وقال: السلام عليك يا ولي الله، فسكنت نفسه إلى

ذلك كان في يدها أسيرا)

وهي تنطلق في ذلك من قرءاة عرفانية لقوله تعالى: ﴿الْحَمْـــدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَـــالَمِينَ﴾ [الفاتحــة: 2].. فاللـــه رب العـالمين، وليس ربـا لقـوم دون قـوم.. ولـذلك هي تنظـر للأقوام جميعا بهـذا الاعتبـار، فلا تحقـر أحـدا من النـاس.. وكيف تحقره.. والله هو الذي خلقه؟

وهي لـذلك أيضـا لا تتجـرأ أن تفضـل عرقهـا على أي عـرق آخـر.. وكيـف تفعـل ذلـك، وبـأي اعتبـار، وهي تـرى نفسها وقومها وكل شيء من الله وباللـه وللـه.. وإن جـاز لأحد أن يفضل.. فهو الله تعالى، لأنه هو الخالق والمالـك، ولا يجوز لأحد أن يكون شريكا لـه في ذلـك، وإلا وقـع في الفخ الذي وقع فيه إبليس حين فضل نفسه على آدم.

وهي كذلك تقرأ كل شيء باسم الله.. كمـا أمـر اللـه تعالى بذلك، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: 1].. ويستحيل على من قرأ الأشياء باسم الله أن يقع في فخاخ الأنا.. لأنه يرى الأشياء كلهـا سـماءها وأرضـها ملـك لله.. فلا يقول عن أي شيء: هذا لي.. بل يقول دائما: هذا لله.

وهي فوق ذلك كله تعتبر اللغة وسيلة.. وتعتبر اللغات جميعـا طرقـا للرحلـة إلى اللـه، لأنـه الهـدف الوحيـد في الوجود.. وما عداه وسائل.. وقد عبر الشيخ ابن عليوة عن هـذا المعـنى أثنـاء رده على من تسـتعبدهم اللغـات، ولا يلتفتــون لمــا خلفهــا، فقــال: (فــإذا كــان هــؤلاء القــوم يستخرجون الجدّ من الهزل، فكيف لا يستخرجون الجـــدّ مـــن الجـدّ، بـل لهم ذلـك لكـونهم لا يقفـون عنـد ظـاهر الألفاظ، وإنّما ينظـرون إلى المعـاني الدالّـة على المـراد، ولا يلتفتـون للحن ولا للإعـراب، بـل يأخـذون المعـاني من

حيث وجدوها، فهم ناظرون لإشارة الأرواح، غـافلون عمـا يتلفظ به اللسان، تراهم مع الله في كلّ حال وشـأن، مـع انّه كلّ يوم هو في شأن)[1]

وذكر ابن عجيبـة قصـة عن بعض العـارفين في ذلـك، فقال: (كان شيخ شيخنا رضي الله عنه إذا ذكـر من تقـدم له في العربية يقول له أنت اترك شـيئاً من عربيتـك، وأنـا أترك شـيئاً من جبليـتي، يعـني من اللغـة الجبليـة، ونلتفت للطريق)[2]

1() ابن عليوة، المنح القدوسية في شرح المرشد المعين على الطريقـة الصوفية، ص24..

2() إيقاظ الهمم شرح متن الحكم (ص: 190)

الطين وحده، وما نشأ عنه من لحم وعظام وخلايا وأعضاء وأنسجة لا يكفي ليحول من الإنسان إنسانا..

بل هو في أحسن أحواله ليس سوى آلة من آلات الروح تستعمله لتعبر من هذا العالم إلى عالم أسمى وأجمل وأرفع..

وهو في أحسن أحواله ليس سوى تجل من تجليات الروح، ومظهر من مظاهرها، وخادم من خدمها.. والحقيقة وراء ذلك كله.

لذلك لا يمكن لدعاة العنصرية أن يفهموا الإنسان مهما استعملوا من وسائل.. وكيف يفهمونه، وهم ينظرون إلى ألوان الجسد لا إلى ألوان الروح، ويسمعون لغة اللسان، ولا يسمعون إلى لغة الحقيقة المختفية وراءه، تلك الحقيقة العلوية الرفيعة التي لولاها ما سجد الملائكة للإنسان، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر:29)

لذلك فإن الدعوة العنصرية تصطدم بالحقيقة الإنسانية قبل أن تصطدم بأي شيء آخر، لأنها تميز الناس على حسب أجسادهم لا على حسب أرواحهم، ومثلها في ذلك مثل من يميز مراتب الناس على حسب ألوان ثيابهم، أو أنواع سياراتهم، أو عدد غرف منازلهم..

وكل ذلك خلاف ما تقتضيه الفطرة السليمة التي عبر عنها أبو الفتح البستي بقوله:

يا خادم الجسم كم   أتطلب الربح فيما

أقبل على النفس فأنت بالنفس لا

وعبرَ عنها الفلاسفة بلسان ابن سينا في عينيته التي تحدث فيها عن الروح، وهبوطها إلى الجسم الإنساني، وبقائها بداخله حتى موعد مغادرتها له متى حان وقت المغادرة، والتي يقول فيها:

هبطت إليك من ورقاء ذات تعزُّزٍ وتمنعِ
محجوبةٍ عن كلِّ وهي التي سفرت ولم
وصلت على كرهٍ كرهت فراقك وهي

ثم تحدث بألم عن إلف الروح للبدن، وتثاقلها إلى الأرض، فقال:

أنفت وما أنست ولما ألفت مجاورة الخراب
وأظنها نسيت عهودا ومنازلا بفراقها لم
حتى إذا حصلت بهاء في ميم مركزها بذات
علقت بها ثاء الثقيل بين المنازل والطلوع
تبكي إذا ذكرت عهودا بمدامعٍ تهمي ولما
وتظلُّ ساجعة على درست بتكرار الرياح
إذ عاقها الشكل نقصٌ عن الأوج
وغدت مفارقةٌ لكل عنها خليف الترب غير

ولم ينس ابن سينا الحكمة العلوية الرفيعة لذلك الهبوط، فقال:

إن كان أهبطها الإله طويت عن الغزِّ
فهبوطها لاشكّ ضربة لتعود سامعةً لما لم
وتكون عالمةً بكلِّ في العالمين وخرقها
وهي التي قطع حتى لقد غربت بعين

فكأنها برقٌ تألّق   ثمَّ انطوى فكأنه لم

وهكذا راح الصوفية بلسان شيخهم الأكبر يـدعون إلى نبذ النظر إلى الجسد، والنظر بدله إلى الحقيقة الإنسـانية الرفيعة المتمثلة في الروح، صاحبة الجمـال العظيم الـذي لا يمكن وصفه، فيقول:

حقيقتي همت   وما رآها
ولو رآها لغدا   قتيل ذاك
فعند ما   صرت بحكم
فبت مسحورا   أهيم حتى
يا حذري من   لو كان يغني
والله ما   جمال ذاك
يا حسنها من   ترعى بذات
إذا رنت أو   تسبي عقول
كأنما أنفاسها   أعراف مسك
كأنها شمس   في النور أو
إن سفرت   نور صباح
أو سدلت   ظلام ذاك
يا قمر تحت   خذي فؤادي أو

هذه هي الحقيقة الإنسـانية الرفيعـة بلسـان المصـادر المقدسـة، ولسـان الفطـرة السـليمة، والفلسـفة النبيلـة، والتصوف العميق.. فأين من هؤلاء جميعا أولئك الغـارقون في متاهات الطين والحمأ المسنون؟

موازين العنصرية والطائفية

كلنا يـزعم أنـه ليس عنصـريا ولا طائفيـا ولا أنانيـا ولا صاحب أثرة.. وكلنا يزعم أنه إنسـان متجـرد للحقيقـة، ولا يـدعو إلا للحقيقـة، ويمتلئ فرحـا بـذلك، لأنـه يـزعم أنـه المركز الذي تطوف حوله كواكب الحقائق.

لكن العاقـل منـا هـو الـذي يتهم نفسـه، ويحاسـبها، ويسـألها عن البينـات المثبتـة لـدعاوها، ولـذلك لا يكتفي برؤية موقفه، وإنما يعرضه على موازين الله..

ومـوازين اللـه في هـذا الجـانب بحسـب المصـادر المقدسـة اثنـان.. أولهمـا التجـرد مـع الحقيقـة، والـدوران معها حيث دارت.. والثاني التعامل بمـا يقتضـه العـدل مـع كل البشر، بل مع كل الكون.

الميزان الأول ـ التجرد مع الحقيقة:

وهو يعني أن المتجرد للحقيقـة المخلص لهـا لا يبـالي هـل قبلهـا قومـه، أم لم يقبلوهـا، وهـل هي متناغمـة مـع قومـه، أم ليسـت متناغمـة معهم.. بـل هـو يطلب الحـق لذات الحق، لا لأنه وجد قومه عليه.. فمعيار الحقيقة عنده هو كونها حقيقة، لا لكون قومه اعتقدوها أو فعلوها.

ويلزم من هذا الميزان أن المتجرد للحق يسـمعه من أي كان، ويأخـذ الحكمـة من أي فم خـرجت، ومن أي بلـد صدرت.. فهمه الحكمة لا قائلها، ولا مصدرها.

ويلزم منـه أيضـا أن يـدور المتجـرد مـع الحـق حيثمـا دارت الحقيقـة، فبوصـلته هي الحقيقـة، لا من يـزعم أنـه يمثلها.

وقد عبر القرآن الكـريم عن تخلـف هـذا المـيزان في عقــول ونفــوس أقــوام الأنبيــاء عليهم الصــلاة والســلام الممتلئين بالعنصرية، فقـال: بَـلْ قَـالُوا إِنَّا وَجَـدْنَا آبَاءَنَـا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (الزخرف:22)

ويخبرنــا عن ذلــك الموقــف الســلبي الــذي وقفــه العنصرون من دعوات الأنبياء بسبب أنانيتهم حرصهم على هويتهم وهوية أجدادهم، فقال: قَالَ أَوَلَـوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْـدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِـهِ كَـافِرُونَ (الزخرف:24)

ولذلك، فإن الميزان الذي الذي يضعه القرآن الكــريم للدلالة على التجرد للحق، والتخلص من الأنانيـة والقوميـة والعصـبية هـو مـا عـبر عنـه قولـه تعـالى: لا تَجِـدُ قَوْمـاً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِـرِ يُـوَادُّونَ مَنْ حَـادَّ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَلَـوْ كَـانُوا آبَـاءَهُمْ أَوْ أَبْنَـاءَهُمْ أَوْ إِخْـوَانَهُمْ أَوْ عَشِـيرَتَهُمْ (المجادلة:22)

ويعقب القــرآن الكــريم مبينــا العــوض الإلهي لهــؤلاء الذين باعوا الفرح والزهو بالقومية والشعوبية والعشـائرية بفـرح الانتمـاء للـه رب العـالمين، جـزاء لا يمكن تصـوره، وعوضا لا يفقه إلا من ذاقوه، قال تعالى: أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَـانَ وَأَيَّدَهُمْ بِـرُوحٍ مِنْـهُ وَيُـدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْـهُ أُولَئِكَ حِـــزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِـــزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُـــونَ (المجادلة:22)

ولا بأس أن نقرب هنا بعض ما ذكر من بدائل إيمانيــة تعوض المضحين بالقومية والعشائرية، فـأول مـا يرزقـون هو الإيمان الـذي عـبر عنـه القـرآن الكـريم بالكتابـة، فهـو إيمان مكتوب في قلوبهم لا تمحـوه الميـاه، ولا يـؤثر فيـه

المناخ.

والجزاء الثاني هو تأييدهم بروح منه.

والجزاء الثالث هو إدخالهم الجنات التي تجـري تحتهـا الأنهار خالدين فيها.

والجزاء الرابع هو رضى الله عنهم، وهو الرضى الذي لا يساويه أي جزاء.

والجزاء الخامس هو رضاهم عن الله.

والجزاء السادس هـو أنهم لا ينسـبون إلى عشـائر أو أقوام بل ينسبون إلى الله.

والجزاء السابع، وهو خاتمة كل هذه الجـوائز الربانيـة هو الفلاح المستقر المستمر الذي لا تقـرره لجـان بشـرية يغلب عليهـا الهـوى، وتتحكم فيهـا الأمزجـة، وتكـثر حولـه الطعون، بل هو نجاح بتقرير رباني يحمل موشور السعادة الدائمة الخالدة.

الميزان الثاني: الحكم بالعدل:

وقد عبر عن هذا الميزان قوله تعـالى: يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا كُونُـوا قَـوَّامِينَ لِلَّهِ شُـهَدَاءَ بِالْقِسْـطِ وَلَا يَجْـرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُــوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [المائدة: 8]

فالآية الكريمة تعتبر العدالة ركنـا من أركـان التقـوى، ثم تطــالب بتعميم العدالــة على الجميــع حــتى على من يبدون العداوة لنا.

لذلك فإن الميزان الـذي نـزن بـه أنفسـنا هـو تعاملنـا بالعدالة في كل شيء مع كل البشر، سواء في أحكامنا أو

مواقفنا أو سلوكنا.. فالخلق الحسن واحد مع الجميع، ومن ميز في سلوكه، فتعامل مع قوم بالرحمة، ومع آخرين بالعنف، فقد وضع نفسه في حزب الطائفيين والعنصريين الممتلئ بالنتانة.

ولذلك وبخ الله اليهود لتمييزهم بين البشر، فقال: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 75]

ويدخل في هذا الباب أولئك الذين يرمون الأحفاد بجرم الأجداد، فيحملونهم أوزار أسلافهم، مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: 164]

ويدخل فيهم أيضا أولئك العنصريين الذين يرددون من غير شعور مع الشاعر الجاهلي قوله:

وما أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد

أو ذلك الذي كان يحمل سيفه، ويقاتل به، لا لكونه رأى ظلم من يقاتلهم، وإنما لأن قومه دعوه لذلك، فقومه في تصورهم هم مركز الحقيقة والعدالة ومنبعها ومقياسها، وقد عبر عن ذلك شاعرهم بقوله:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا

وقال آخر:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

أي أنهم لا يسألون أخاهم: (لماذا نحارب؟)، وإنما يحاربون بلا سبب، ولأي سبب، فالحمية الرعناء تدفعهم

للقتال بلا سبب.

وهكـذا لـو طبقنـا هـذه المقـاييس على كثـير من القومـيين والشـعوبيين لوجـدناهم يمثلـون الجاهليـة في أجلى صـورها وأوضـحها وأدقهـا، وأنـه لا فـارق بينهم وبين أولئك الذين واجههم الأنبياء إلا في التلاعب بالأسماء، كمـا ورد في الحـديث: (إن أمـتى يشـربون الخمـر فى آخـر الزمان يسمونها بغير اسمها)(1)

وهكذا شربت خمـرة الطائفيـة والعنصـرية والعرقيـة، وسميت بأسماء كثيرة.. والأسماء الطيبة مهمـا كـثرت لن تحلل المسميات الخبيثـة، ولن تطيبهـا، ولن ترفـع رائحتهـا المنتنة.

---

(1) رواه الطـبرانى (11/118، رقم 11228) . قـال الهيثمى (5/57) : رجاله ثقات.

هذه التجربة النازية.. فلا تعيدوا إحياءها

عند التأمل المحايد للأطروحات العنصرية مهما كان مصدرها، نجد أنها تشترك في تضخيم الأنا الجمعي المرتبط بالقومية، وتقزيم غيره، واعتباره أقل شأنا من ذلك الأنا الجمعي المنطلق أصلا من تضخم الأنا الفردي.

فالفرد الذي يصيح في قرارة قلبه قائلا: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24]، هو نفسه الذي يرى أن غير قومه أدنى بكثير من قومه، لسبب بسيط وهو أنهم ليسوا من قومه.

ولذلك كانت العنصرية مظهرا من مظاهر الكبر، وتجل من تجليات العجب، ونباتا من بذرة الغرور، وكل ذلك نتاج لتضخم الأنا وتعاظمها وتعاليها على حقيقتها وماهيتها.

ومظاهر هذا التضخم تختلف بحسب الظروف، فإن كان الظرف صعبا، تحلى العنصري والقومي ببعض مظاهر التسامح التي تسمح له بالبقاء والاستمرارية، لكنه إن أتيحت له الفرصة، وتمكن في الأرض، راح يمارس كل ما يمليه عليه ذلك الكبر من مظاهر الاستعلاء والظلم والاستبداد.

وقد ذكر الله تعالى نموذجا لذلك بفرعون الطاغية الذي راح يفسد في الأرض بسبب كبره واستعلائه، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4]

وهكذا كان الطغاة في كل الأزمنة عربا كانوا أو

عجما، يمارسون باسم عنصريتهم البغيضة كل أساليب العدوان على غيرهم من الشعوب التي ينعتونها بالبربرية والتخلف، ثم يستولون عليها وعلى خيراتها، ويستغلونها أبشع استغلال.

ولعل أقرب الأمثلة وضوحا على هذه النزعة العنصرية البغيضة، وتمكنها في الأرض، النزعة النازية، وهي نزعة عنصرية، راحت تستعمل الطين والحمأ المسنون وسيلة لتصنيف البشر، والتسلط عليهم.

يقول المسيري معبرا عن أثر العنصرية في ظهور النازية: (مع تَزايُد معدلات العلمنة الشاملة، لم يَعُد من الممكن تصنيف البشر على أساس ديني، فلم يكن ثمة مفر من تصنيفهم على أساس مادي موضوعي طبيعي كامن فيهم، وليس مفارقاً لهم. ولهذا، طُرح الأساس البيولوجي العِرْقي أساساً وحيداً وأكيداً لتصنيفهم. وتم المزج بين هذه النظرية شبه العلمية ونظرية أخرى شبه علمية وهي الداروينية الاجتماعية، وكانت الثمرة هي النظرية الغربية في التفاوت بين الأعراق ذات الطابع الدارويني)[1]

وهذا الطرح النازي ـ كما عبر عنه المسيري ـ هو نفسه الطرح الذي ينادي به العنصريون الذين يتصورون أن لهم عرقا خاصا ومميزا، وأنهم مصنفون بيولوجيا تصنيفا يختلف بهم عن سائر الإنسانية.

ثم ذكر كيف استخدم النازيون ذلك الطرح العلمي في ظاهره العنصري في باطنه، فقال: (وتُقسِّم هذه النظرية الجنس البشري بأسره إلى أعراق لكلٍ منها سماته التي يمكن تحديدها علمياً، ومن ثم يمكن تصنيف

---

(1) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (5/ 143)

البشر إلى أعراق راقية عليا: الآريون وبخاصة النورديـون، وأعراق دنيا: الزنوج والعرب واليهود)

ثم ذكـر أن ذلـك التصـنيف لم يكن تصـنيفا علميـا مجردا، وإنما كان له تبعاته على الواقـع العملي، فـذكر أن العنصر الآري الأبيض الذي تصور أن لـه نوعـا من التفـوق على كل الشعوب الأخرى راح يملي عليـه مواقـف سـلبية من تلـك الشـعوب (تتجـاوز أيـة منظومـات قيميـة، وأي حديث عن المساواة)

ثم ذكـر أن هـذه العنصـرية العلميـة راحت تبحث في الأعراق لتحـدد المنـاطق الـتي يتواجـد فيهـا هـذا العنصـر المميـز، مثلمـا يفعـل دعـاة الأمازيغيـة تمامـا، يقـول المسيري: (وقام المفكـرون العرْقيـون الغربيـون بتطـوير المفهـوم، فـذهبوا إلى أن هـذا الجنس الآري انتشـر من شمال الهند وإيران عبر الإسـتبس، إلى أوربـا، وهـو جنس يتسم ـ حسـب نظـريتهم ـ بالجمـال والـذكاء والشـجاعة وعمـق التفكـير والمقـدرة على التنظيم السياسـي، وبأنـه المؤسـس الحقيقي للحضـارة وبتفوقـه على السـاميين والصفر والسود)

ثم نقل عن [هيوستون ستيوارت تشامبرلين] (1855 ـ 1927) أن (النـــورديين هم أرقى الآريين، فهم الجنس السيد، أما اليهود والسود والعرب فيشغلون أدنى درجـات السلم العرْقي)

وذكر المسيري الكثير من مظاهر الاعتـداء على تلـك الأعـراق الـدنيا، ومن أمثلـة ذلـك أن المـواطن النـازي [جوزيف كرامر] ذكر عن نفسـه أنـه سـمَّم ثمـانين امـرأة بالغـاز أثنـاء خدمتـه في أوشـفيتس.. وحين سُـئل عن مشاعره، صرح ببرود أنـه لم تكن لديـه أيـة مشـاعر على

الإطلاق، وقال للقضاة: (لقد تلقيت أمراً بقتل ثمانين من النزلاء بالطريقة التي قلتها لكم.. وبالمناسبة هذا هو الأسلوب الذي تدربت عليه)[1]

وذكر أن هذا الموقف المتلبس بالعلم، والمنفصل عن كل القيم الإنسانية، أخرج ما يطلق عليه (الصحة العرْقية)، والذي ينطلق من ضرورة الحفاظ على صفاء العرق، والتخلص من العناصر الضارة أو غير النافعة، سواء بما يُسمَّى (القتل الرحيم)، أو (القتل العلمي) أو (القتل المحايد) أو (القتل الأداتي)، أو (القتل الموضوعي).. أي التخلص من المعوقين وغيرهم من المرضى بأمراض مزمنة عن طريق التصفية الجسدية.

وذكر أن النخبة النازية أصدرت عدة قوانين لضمان الصحة العرْقية، فوضعوا البشر تحت تصنيفات مختلفة.. منهم المستهلكون الذين لا نفع اقتصادي لهم: مثل المعتوهين والمتخلفين عقلياً والأطفال المعوقين والأفراد المتقدمين في السن والمصابين بالسل، والمرضى الميئوس من شفائهم.

ومنهم أعضاء الأجناس الدنيا مثل السلاف والغجر واليهود والأقزام، فهم (غرباء داخل الفولك الألماني ولا يوجد مبرر قوي لوجودهم إلا باعتبارهم مادة خاماً تُوظَّف لصالح الجنس الآري الأرقى، خاصةً أن بعضهم، مثل البولنديين، يشغلون المجال الحيوي لألمانيا)

وذكر أن النازيين أصدروا في 14 يوليه 1933 قانوناً يُسمَّى (قانون التعقيم) لمنع بعض القطاعات البشرية من المعوقين من التكاثر، وبموجبه تم تعقيم أربعمائة ألف مواطن ألماني.

---

[1] موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: 5/ 240.

وأعلن عام 1939 عاماً يـراعي فيـه المـواطن واجب التمتع بصحة جيدة وطُلب من كل طـبيب أو دايـة أن تُبلـغ عن أي مولــود جديــد معــوق، وبــدأت عمليــة القتــل الموضـوعي أو العلمي أو المحايـد لهـؤلاء الـذين لا يمكن شفاؤهم.

وقد صُنِّف اليهود حينها باعتبارهم مرضى، وذلك نظراً لعــدم نقــائهم العــرْقي، ومن ثم أصــبح من الضــروري إبادتهم، شأنهم شأن العناصر الألمانية غير النافعة (1).

ولم يتوقـف الأمـر عنـد ذلـك القتـل الـذي يعتبرونـه رحيمـا، بـل تعـداه إلى اسـتعمال البشـر وسـيلة لأبشـع التجــارب العلميــة، حيث كــان النــازيون يختــارون بعض العناصر التي لهـا أهميـة تجريبيـة خاصـة لإجـراء التجـارب عليها. (وكان هذا يتم بسهولة ويسر وسلاسـة؛ لأن البشـر تحولوا إلى موضوع أو مـادة محايـدة في عقـول القـائمين على هذه التجارب)(2)

ومن الأمثلة التي ضربها المسيري على ذلك (الدكتور هانس إيسيل) الـذي كـان يقـوم بعمليـات استئصـال دون تخدير ليدرس أثرها.

ومنها تجارب أجريت على نزلاء معسكرات الاعتقــال، حيث كان بعضهم يُطلَق عليه الرصاص لاختبار فعاليته في الحــرب، وعُــرّض آخــرون لغــازات ســامة في عمليــات اختباريـة.. وكـان البعض يوضـعون في غرفـة مفرغـة من الهـواء لمعرفـة المـدة الـتي يسـتطيع الإنسـان خلالهـا أن يظل حياً، وهو على ارتفاعات عالية أو بــدون أوكسـجين..

1() موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (5/ 243)

2() موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (5/ 243)

وكـان الأوكسـجين يُقلـل تـدريجياً ويخفض الضـغط، حـتى تنفجـر رئـاتهم.. كمـا كـان الضـغط الـداخلي على أغشـية طبلات الآذان يسبب لهم عذاباً يوصلهم إلى حد الجنون.

وذكر أن [الدكتور راشر]، وهو عالم نازي، قام بتزويد غـرف الضـغط في النهايـة بمـبردات تجـبر عيناتـه على مواجهة شروط أقرب ما تكـون إلى الارتفاعـات العاليـة.. وكان يجري تجارب التجميد التي يتعـرض فيهـا الأشـخاص إلى الـبرد الشـديد المسـتمر حـتى المـوت.. والهـدف من ذلـك معرفـة مـدة مقـاومتهم، وبقـائهم أحيـاء، ومـا الـذي يمكن صنعه لإطالـة حيـاة الطيـارين الـذين يسـقطون في مياه متجمدة. (1)

وذكر أن الطبيب النازي الشـهير الـدكتور منجـل كـان يقوم باختيار التوائم وإرسالهم لإجراء تجارب علمية فريدة عليهم، ومن أمثلتها أنه كان يفصل التوأمين ويضـعهما في غرفتين منفصلتين، ثم يعـذب أحـدهما أحيانـاً ليـدرس أثـر عملية التعذيب على الآخر، بل كان يقتل أحـدهما لدراسـة أثر هذه العملية على الآخر.

وذكر عن [بريمو ليفي] قوله: (إن ألمانيـا النازيـة هي المكان الوحيد الذي كـان بوسـع العلمـاء أن يدرسـوا فيـه جثتى توأمين قُتلا في نفس اللحظة) (2)

وذكـر عن [البروفسـور هـاليروفوردن] أنـه سـمع عن أنبـاء عن إبـادة بعض العناصـر البشـرية الـتي لا تسـتحق الحياة، فقال للموظف المسئول بشـكل تلقـائي: إن كنتم سـتقتلون كـل هـؤلاء، فلمـاذا لا تعطوننـا أمخـاخهم حـتى

---

(1) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (5/ 244)

(2) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (5/ 245)

يمكن اسـتخدامها؟، فسـأله: كم تريـد؟ فأجـاب: عـدد لا يحصى، كلما زاد العدد كان أفضل.

ويذكر أن هذا البروفسور أعطاهم بعد ذلك الأحمـاض اللازمة والقوارير الخاصة بحفظ الأمخاخ.. وذكر أنـه فـرح فرحا شديدا حينما وجد أمخاخ معوقين عقلـيين (في غايـة الجمال، على حد قوله) و(أمخاخ أطفـال مصـابة بـأمراض الطفولة أو تشوهات خلقية)[1]

هذه مجرد نماذج عن حركة من الحركـات العنصـرية، والتي لم تنطلق إلا من ذلك التضخيم للأنا.. ثم اسـتدرجها الشـيطان رويـدا رويـدا لتمـارس كـل هـذه السـلوكات البشعة، وبمنتهى البرودة..

ولذلك، فإن من يريد أن يقطع دابر الشـيطان، يحتـاج إلى التخفيـف من غلوائـه، واعتبـار نفسـه بشـرا كسـائر البشر، ويمتلئ بالتواضع، وحينها ربما يضمن لنفسه أنه لن يحـل بـه من الكـبر والاسـتعلاء مـا حـل بفرعـون وهتلـر وزبانيتهما.

---

(1) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (5/ 246)

إبليس.. رائد العنصرية

تكرار القرآن الكـريم لقصـة إبليس ورفضـه السـجود لآدم، وذكــره في نفس الــوقت أن الملائكــة مــع شــرفها وفضلها وعصمتها قـامت بالسـجود تلبيـة لأمـر اللـه، ليس اعتباطا، ولا مجرد تسلية.. بل هـو تحـذير خطـير للبشـرية أن يحل بها مثلما حل بإبليس.

فإبليس هو مجرد نموذج عن الكبر والاستعلاء، كما أن الملائكة نمـاذج عن التواضـع والتسـليم.. والإنسـان مخـير بعد ذلك بين اختيار منهج أحدهما.. إما التسليم والتواضــع، أو التكبر والاعتراض.

أما التسليم والتواضع، فهـو اعتقـاد الإنسـان أنـه عبـد فقـير للـه، فـذلك يمـارس عبوديتـه بكـل تواضـع واحـترام لجميع خلق اللـه.. احـترام كـل شـيء، حـتى الأرض الـتي يسير عليها، لأنه لا يدري لعلهـا أفضـل منـه.. قـال تعـالى: ﴿ وَعِبَـادُ الـرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُـونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًـا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان: 63]

أما التكبر والاعتراض، فهو اعتقاد الإنسان أنـه أفضـل من غيره، وأنه خـير منـه بسـبب لغتـه الـتي يتكلم بهـا، أو جيناته التي يحملها، أو الأرض التي يسكن فيهـا، أو الـزمن الذي وجد فيه.. لأنه يـردد بـذلك مقولـة إبليس الخطـيرة: ﴿أَنَـا خَيْـرٌ مِنْـهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَـارٍ وَخَلَقْتَـهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: 12]، والتي تمثل الاستعلاء في أعلى درجاتـه.. ذلـك أن الـذي يحـدد الخيريـة هـو اللـه.. وليس لأحـد من الناس أي كان أن يطغى ويستعلي، ويقول لغيره: أنا خـير منـك.. وإلا كـان مصـيره مصـيره إبليس.. بـل هـو في الحقيقة ليس سوى جندي من جنوده، ووارث من ورثته.

وعلى هـدي القـرآن الكـريم في التحـذير من إبليس، واعتبـاره رائـدا للعنصـرية والقوميـة والشـعوبية وكـل النزعـات الاسـتكبارية، سـار الناصـحون من الربـانيين والورثة والأوصـياء على هـذا المنهج، فراحـوا يـدعون إلى الاعتبار بقصة إبليس حتى لا يكررهـا الإنسـان مـع إخوانـه من البشر.

ومن أجمـل تلـك الوصـايا، وأشـملها خطبـة أمـير المؤمـنين الإمـام علي في ذم إبليس(1)، والـتي تعتـبر دستورا في الرد على العنصرية والطائفيـة وكـل النزعـات الاستكبارية.

والتي بدأها بهذه الديباجة العرفانية المرتبطة بالرؤيـة التوحيدية للكون: (الحمد للـه الـذي لبس العـز والكبريـاء، واختارهما لنفسه دون خلقـه، وجعلهمـا حمى وحرمـا على غيره، واصطفاهما لجلالـه، وجعـل اللعنـة على من نازعـه فيهما من عباده)

ثم ذكـر اختبـار اللـه لملائكتـه المقـربين، ليمـيز المتواضـعين منهم من المسـتكبرين، (إلا إبليس اعترضـته الحمية، فافتخر على آدم بخلقه، وتعصب عليه لأصله)

ولهذا فقد صار إبليس ـ كما يذكر الإمام علي ــ (عـدو الله إمـام المتعصـبين، وسـلف المسـتكبرين، الـذي وضـع أسـاس العصـبية، ونـازع اللـه رداء الجبريـة، وادرع لبـاس التعـزز، وخلـع قنـاع التـذلل.. ألا تـرون كيـف صـغره اللـه بتكبره، ووضعه بترفعه، فجعله في الدنيا مدحورا، وأعد له في الاخرة سعيرا؟)

ثم ذكر الإمام علي السر في خلـق آدم عليـه السـلام

---

(1) نهج البلاغة:خطبة 192.

بتلك الصفة التي يتيه بها عليه إبليس، فقال: (ولو أراد الله سبحانه أن يخلق آدم من نور يخطف الابصار ضياؤه، ويبهر العقول رواؤه، وطيب يأخذ الانفاس عرفه، لفعل، ولو فعل لظلت له الاعناق خاضعة، ولخفت البلوى فيه على الملائكة، ولكن الله سبحانه يبتلي خلقه ببعض ما يجهلون أصله، تمييزا بالاختبار لهم، ونفيا للاستكبار عنهم، وإبعادا للخيلاء منهم)

وهذا ينطبق تماما على العنصريين الذين ينظرون إلى تميزهم عن سائر الناس في ألوانهم وألسنتهم، ويستكبرون بها عليهم.. ولذلك لم يكن هناك أي خلاف بينهم وبين إبليس المستعلي بطينته، والمستكبر بعنصره.. يقول الإمام علي: (فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس، إذ أحبط عمله الطويل، وجهده الجهيد، وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة، لا يدرى أمن سني الدنيا أم من سني الاخرة، عن كبر ساعة واحدة)

ثم ذكر الإمام أن عدالة الله تأبى أن تفرق بين خلقه، فلذلك لم يكن جزاء من فعل ما فعله إبليس سوى العقوبة التي حلت به، فـ (ما كان الله سبحانه ليدخل الجنة بشرا بأمر أخرج به منها ملكا، إن حكمه في أهل السماء وأهل الارض لواحد، وما بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في إباحة حمى حرمه على العالمين)

ثم إن خطورة إبليس ــ كما يذكر الإمام علي في خطبته ـ ليس في كونه رائدا عمليا للكبر والعنصرية، بل في كونه أيضا داعية أيديولوجيا لهما، وهو يملك من وسائل الإقناع ما يستطيع أن يؤثر به على من لم يكمل تسليمهم لله، وتواضعهم له..

يقول الإمام: (فاحذروا عدو الله أن يعديكم بدائه،

وأن يستفزكم بندائه، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله.. فلعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد، وأغرق لكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب، و﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 39]، قذفا بغيب بعيد، ورجما بظن غير مصيب)

ثم ذكر الإمام علي من استجاب لإبليس، وأطاعه في عنصريته، وقلده فيها، فقال: (صدقه به أبناء الحمية، وإخوان العصبية، وفرسان الكبر والجاهلية)

ثم ذكر آثار تلك العنصرية التي نشرها الشيطان بين بني الإنسان، فقال: (حتى إذا انقادت له الجامحة منكم، واستحكمت الطماعية منه فيكم، فنجمت الحال من السر الخفى إلى الأمر الجلي، استفحل سلطانه عليكم، ودلف بجنوده نحوكم، فأقحموكم ولجات الذل، وأحلوكم ورطات القتل، وأوطأوكم إثخان الجراحة، طعنا في عيونكم، وحزا في حلوقكم، ودقا لمناخركم، وقصدا لمقاتلكم، وسوقا بخزائم القهر إلى النار المعدة لكم، فأصبح أعظم في دينكم جرحا، وأورى في دنيا كم قدحا، من الذين أصبحتم لهم مناصبين، وعليهم متألبين)

ثم راح الإمام يحذر أصحابه، والأمة من بعده من الشيطان، ونزغه بينهم، فقال: (فاجعلوا عليه حدكم، وله جدكم، فلعمر الله لقد فخر على أصلكم، ووقع في حسبكم، ودفع في نسبكم، وأجلب بخيله عليكم، وقصد برجله سبيلكم، يقتنصونكم بكل مكان، ويضربون منكم كل بنان، لا تمتنعون بحيلة، ولا تدفعون بعزيمة، في حومة ذل، وحلقة ضيق، وعرصة موت، وجولة بلاء)

ثم ذكر منهج الحركة المقاومة لنزغات الشيطان، فقال: (فأطفئوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية،

وأحقاد الجاهلية، وإنما تلك الحمية تكون في المسلم من خطرات الشيطان ونخواته، ونزغاته ونفثاته، واعتمدوا وضع التذلل على رؤوسكم، وإلقاء التعزز تحت أقدامكم، وخلع التكبر من أعناقكم، واتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده، فإن له من كل أمة جنودا وأعوانا، ورجلا وفرسانا)

ثم راح الإمام ببلاغته التي ورثها من تلمذته على القرآن الكريم وبيت النبوة يرد على العنصريين والقوميين والشعوبيين بكل صنوف الحجاج، فيقول: (ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه من غير ما فضل جعله الله فيه سوى ما ألحقت العظمة بنفسه من عداوة الحسد، وقدحت الحمية في قلبه من نار الغضب، ونفخ الشيطان في أنفه من ريح الكبر الذي أعقبه الله به الندامة، وألزمه آثام القاتلين إلى يوم القيامة.. ألا وقد أمعنتم في البغي، وأفسدتم في الارض، مصارحة لله بالمناصبة، ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة)

وهكذا استعمل الإمام علي كل أساليب الترغيب والترهيب والمناصحة والتحذير ليبين خطر القومية والشعوبية على هذه الأمة، بل على البشرية جميعا.. (فالله الله في كبر الحمية، وفخر الجاهلية! فإنه ملاقح الشنآن، ومنافخ الشيطان، اللاتي خدع بها الامم الماضية، والقرون الخالية، حتى أعنقوا في حنادس جهالته، ومهاوي ضلالته، ذللا عن سياقه، سلسا في قياده، أمرا تشابهت القلوب فيه، وتتابعت القرون عليه، وكبرا تضايقت الصدور به)

(ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم! الذين تكبروا عن حسبهم، وترفعوا فوق نسبهم، وألقوا

الهجينة على ربهم، وجاحدوا الله ما صنع بهم، مكابرة لقضائه، ومغالبة لالائه، فإنهم قواعد أساس العصبية، ودعائم أركان الفتنة، وسيوف إعتزاء الجاهلية)

(فاتقوا الله ولا تكونوا لنعمه عليكم أضدادا، ولا لفضله عندكم حسادا، ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم، وخلطتم بصحتكم مرضهم، وأدخلتم في حقكم باطلهم، وهم أساس الفسوق، وأحلاس العقوق، اتخذهم إبليس مطايا ضلال، وجندا بهم يصول على الناس، وتراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقا لعقولكم، ودخولا في عيونكم، ونفثا في أسماعكم، فجعلكم مرمى نبله، وموطىء قدمه، ومأخذ يده)

(فاعتبروا بما أصاب الامم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته، ووقائعه ومثلاته، واتعظوا بمثاوي خدودهم، ومصارع جنوبهم، واستعيذوا بالله من لواقح الكبر، كما تستعيذونه من طوارق الدهر)

وبعد كل هذه التحذيرات راح الإمام علي يصف الصفوة المؤمنة، وتسليمها لله، وتواضعها لخلقه، فقال: (فلو رخص الله في الكبر لأحد من عباده لرخص فيه لخاصة أنبيائه وأوليائه، ولكنه سبحانه كره إليهم التكابر، ورضي لهم التواضع، فألصقوا بالأرض خدودهم، وعفروا في التراب وجوههم، وخفضوا أجنحتهم للمؤمنين، وكانوا قوما مستضعفين، قد اختبرهم الله بالمخمصة، وابتلاهم بالمجهدة، وامتحنهم بالمخاوف، ومخضهم بالمكاره، فلا تعتبروا الرضى والسخط بالمال والولد جهلا بمواقع الفتنة، والاختبار في مواضع الغنى والافتقار، فقد قال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (56)﴾

[المؤمنـون: 55ـ، 56]، فـإن اللـه سـبحانه يختـبر عبـاده المسـتكبرين في أنفسـهم بأوليائـه المستضـعفين في أعينهم)

ثم ذكر مثالا عن ذلك بموسى عليه السلام الذي دخل (ومعه أخوه هارون على فرعون، وعليهما مدارع الصوف، وبأيديهما العصي، فشـرطا لـه ــ إن أسـلم ــ بقـاء ملكـه، ودوام عـزه، فقـال: ألا تعجبـون من هـذين يشـرطان لي دوام العز، وبقاء الملك، وهمـا بمـا تـرون من حـال الفقـر والـذل، فهلا ألقي عليهمـا أسـاورة من ذهب؟ إعظامـا للذهب وجمعه، واحتقـارا للصـوف ولبسـه! ولـو أراد اللـه سـبحانه بأنبيائـه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنـوز الـذهبان، ومعادن العقيان، ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طـير السماء ووحوش الارضين لفعل، ولـو فعـل لسـقط البلاء، وبطل الجزاء، واضمحلت الأنباء، ولما وجب للقابلين أجور المبتلين، ولا اسـتحق المؤمنـون ثـواب الـمحسنين، ولا لزمت الأسـماء معانيهـا، ولكن اللـه سـبحانه جعـل رسـله أولي قـوة في عـزائمهم، وضـعفة فيمـا تـرى الأعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلـوب والعيـون غـنى، وخصاصـة تملأ الأبصار والأسماع أذى)

وهكذا كان من حكمة الله تعـالى ــ كمـا يـذكر الإمـام علي ــ أن يختـبر خلقـه بالمتواضـعين والبسـطاء ليتمـيز المسلّم لله عن المعترض عليه، فـ (لو كانت الأنبيـاء أهـل قـوة لا تـرام، وعـزة لا تضـام، وملـك تمـد نحـوه أعنـاق الرجال، وتشد إليـه عقـد الرحـال، لكـان ذلـك أهـون على الخلق في الاعتبار، وأبعـد لهم من الاسـتكبار، ولآمنـوا عن رهبـة قـاهرة لهم، أو رغبـة مائلـة بهم، فكـانت النيـات مشتركة، والحسنات مقتسمة، ولكن الله سـبحانه أراد أن يكون الاتباع لرسله، والتصـديق بكتبـه، والخشـوع لوجهـه،

والاستكانة لأمره، والاستسلام لطاعته، أمورا له خاصة، لا تشوبها من غيرها شائبة، وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل)

وذكر الإمام علي مثالا على سنة الله تعالى في ذلك بالمكان الذي اختاره لحج عباده، فقالك (ألا ترون أن الله سبحانه، اختبر الاولين من لدن آدم صلى الله عليه، إلى الآخرين من هذا العالم، بأحجار لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فعجلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياما، ثم وضعه بأوعر بقاع الارض حجرا، وأقل نتائق الدنيا مدرا، وأضيق بطون الأودية قطرا، بين جبال خشنة، ورمال دمثة، وعيون وشلة، وقرى منقطعة، لا يزكو بها خف ولا حافر ولا ظلف. ثم أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم، تهوي إليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة، ومهاوي فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتى يهزوا مناكبهم ذللا يهللون لله حوله، ويرملون على أقدامهم شعثا غبرا له، قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم، وشوهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاء عظيما، وامتحانا شديدا، واختبارا مبينا، وتمحيصا بليغا، جعله الله تعالى سببا لرحمته، ووصلة إلى جنته.. ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام، ومشاعره العظام، بين جنات وأنهار، وسهل وقرار، جم الاشجار، داني الثمار، ملتف البنى، متصل القرى، بين برة سمراء، وروضة خضراء، وأرياف محدقة، وعراص مغدقة، وزروع ناضرة، وطرق عامرة، لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء.. ولو كان الاساس المحمول عليها، والاحجار المرفوع بها، بين زمردة خضراء، وياقوتة حمراء، ونور وضياء، لخفف ذلك مضارعة الشك في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن

القلوب، ولنفى معتلج الريب من الناس)

وهكذا، فإن سنة الله سبحانه أن (يختبر عباده بـأنواع الشـدائد، ويتعبـدهم بـألوان الــمجاهد، ويبتليهم بضـروب المكاره، إخراجا للتكـبر من قلـوبهم، وإسـكانا للتـذلل في نفوسـهم، وليجعـل ذلـك أبوابـا فتحـا إلى فضـله، وأسـبابا ذللالعفوه)

ثم ذكــر الإمــام علي المنهج الــذي يقــاوم بــه الكــبر والاستعلاء والعصبية، فقال: (فالله اللـه في عاجـل البغي، وآجـل وخامـة الظلم، وسـوء عاقبـة الكـبر، فإنهـا مصـيدة إبليس العظمى، ومكيدتــه الكـبرى، الــتي تسـاور قلــوب الرجـال مسـاورة السـموم القاتلـة، فمـا تكـدي أبـدا، ولا تشـوي أحـدا، لا عالمـا لعلمـه، ولا مقلا في طمـره، وعن ذلك ما حرس الله عباده المؤمنين بالصـلوات والزكـوات، ومجاهـــدة الصـــيام في الايـــام المفروضـــات، تســـكينا لاطرافهم، وتخشيعا لابصارهم، وتذليلا لنفوسهم، وتخفيضا لقلـوبهم، وإذهابـا للخيلاء عنهم، لمـا في ذلـك من تعفـير عتاق الوجوه بـالتراب تواضـعا، والتصـاق كـرائم الجـوارح بالارض تصاغرا، ولحوق البطون بالمتون من الصيام تذللا، مع ما في الزكاة من صرف ثمرات الارض وغير ذلـك إلى أهل المسكنة والفقر. انظروا إلى ما في هذه الافعال من قمع نواجم الفخر، وقدع طوالع الكبر)

هـذه مقـاطع من خطبـة الإمـام علي، والتفكـر فيهـا وحدها كاف لردع كل وساوس النفس الأمارة الــتي تحض على التكبر والاستعلاء، وكيف لا تكـون كـذلك، وقـد قالهـا باب مدينة العلم، وتلميذ رسول اللـه ﷺ الأكـبر، ويعسـوب الدين، وأمير المتقين.

من الــدعوات العنصــرية الــتي نســمعها من بعض المثقفين من المشارقة أو المغاربـة، أو من العـوام منهم، ذلــك التفريــق بين جهــات الأرض مشــارقها ومغاربهــا.. فالبعض يعتبر الحكمة تشرق مع المشرق.. والبعض يـذكر أنها تغرب مع المغرب.. ولذلك يدعو كل واحـد منهمـا إلى الجهة التي يكون فيها.. وكـأن اللـه مـيز بين الجهـات عنـد هؤلاء، كما ميز بين الأعراق عند أولئك.

وهذه دعـوى عنصـرية، وهي مثـل الـدعوات العرقيـة نوع من تضخم الأنا وكبريائهـا.. ذلـك أن المشـرقي الـذي يتعصب لمشرقه يبني منطقه على كون الحقيقة والحكمة والحضــارة بالمشــرق، لكونــه هــو بالمشــرق، ولــو كــان بالمغرب لارتحلت الحكمة معه إلى المغرب..

وهكذا يرى منافسه المغربي أنه مركز دائرة الحكمــة والحضارة، ولذلك يمـيز بين الأعلام، فينتصـر للمغاربـة، لا لكونهم أصحاب حقيقة وحكمة، وإنما لكونهم مغاربة.

وهذا يتنافى مع الرؤية الكونية، وحقائق الجود الإلهي، ومـوازين عدالتـه.. فاللـه تعـالى يعامـل برحمتـه البشـرية جميعــا معاملــة واحــدة، لأنهم جميعــا خلقــه، ولــذلك فــإن رحمته سارية بينهم جميعا، ولذلك ورد في القرآن الكــريم قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24]

وهذا النص يـدل على أنـه لا توجـد أمـة من الأمم، ولا شعب من الشعوب إلا وأرسل الله له من الأنبياء والرسل من يبصرونه بحقيقة الوجود، ووظائف الإنسان فيه.. ويدل أيضــا على أنــه لم تخــل أمــة من الأمم من الصــالحين

والأولياء والحكماء..

أما عدم تسجيل ذلك في التاريخ، فليس شـيئا مهمـا، فالتاريخ لا يسجله في معظم الأحوال إلا الساسة، ولــذلك يهملـون الاهتمـام بالعقائـد والقيم، ويركـزون على الحكم والسياسة.

أما اقتصار القرآن الكريم على ذكر بعض الأنبياء دون بعض، فـذلك لحكمـة إلهيـة ترتبـط بالأديـان الكـبرى الـتي اسـتقر عليهـا واقـع التـاريخ البشـري، ولـذلك نـرى هـذه الأديــان المســماة الإبراهيميــة هي الســائدة والمنتشــرة بكثرة..

والخطأ الـذي يقـع فيـه المؤرخـون من المسـلمين أو غيرهم هـو حصـرهم التـاريخ الـديني فيمـا سـجله الكتـاب المقدس.. الذي لم يكتف بالتأريخ الديني، وإنما راح يــؤرخ للبشــرية جميعــا، ويعتبرهــا وليــدة زمن قــريب لا يتجــاوز الآلاف المعدودة، بينما هو في حقيقته يتجاوز ذلك بكثير.

ولهذا يأمرنا الله تعالى بتجاوز ذلـك كلـه، والسـير في الأرض جميعا، لأخذ الحكمة من أي فم خــرجت، وعلى أي لسان برزت، قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُـونَ لَهُمْ قُلُـوبٌ يَعْقِلُـونَ بِهَـا أَوْ آذَانٌ يَسْـمَعُونَ بِهَـا فَإِنَّهَـا لَا تَعْمَى الْأَبْصَــارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُــوبُ الَّتِي فِي الصُّــدُورِ﴾ [الحج: 46]

وذكر عن ذي القرنين أنه طـاف المشـرق والمغـرب، وذكر عن موسـى عليـه السـلام أنـه سـار في طلب العلم والحكمـة مسـافات بعيـدة، بـل إنـه ذكـر لفتـاه اسـتعداده للسير أحقابـا من السـنين حـتى يبلـغ منبـع الحكمـة، قـال تعالى:﴿ وَإِذْ قَـالَ مُوسَـى لِفَتَـاهُ لَا أَبْـرَحُ حَتَّى أَبْلُـغَ مَجْمَـعَ

الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: 60]

وذكر أنه عندما وصل إلى مبتغاه تعامل معه في قمـة التواضع، ذاكرا له أنه لم يأت إلا للتلمـذة عليـه، مـع كونـه رســولا من أولي العــزم من الرســل، وقائـــد قومـــه ومخلصهم، وصاحب المعجزات الباهرة والكتـاب العظيم.. ومع ذلك كله لم يته عليه، ولم يفخر، بل كان يعتذر له كل حين، ويقابل شدته بكل لين.

من الدعاوى التي يثيرها دعاة الأمازيغية الأيديولوجيـة خصوصـا، والـتي تجعلهم ينفـرون من العـرب والعروبـة [التـاريخ]، فهم يعتـبرون العـرب محتلين لبلادهم، وقـد فرضوا سيطرتهم الثقافية والحضارية عليها بناء على ذلـك الاحتلال.

وبناء على هذا، يرون التحرر الحقيقي لا يكمـل فقـط بطرد الاستعمار الفرنسي، ولا غيره من أنواع الاسـتعمار، وإنما بطرد العروبة الوافدة مع الاستعمار.. بل إن بعضـهم تجرأ، فطالب بطرد العرب أنفسهم.. وآخرون منهم راحوا يـذكرون أنـه لا يوجـد عـربي في الشـمال الإفـريقي، وأن الأرض خلت منهم، فلم يبق إلا لسانهم.

وهم يختلفـون في هـذا كلـه بين متشـدد ومتسـاهل.. ونحن نخـاطبهم جميعـا، لكنـا نخص المؤمـنين منهم دون غـيرهم من أصـحاب الفكـر المـادي القـريب من النازيـة والصـهيونية، والـذين لا نسـتطيع أن نخـاطبهم بـأي لغـة إنسانية.

فنقـول لهـؤلاء المؤمـنين: لا بـأس.. سـلمنا لكم بـأن أولئك الذين وفدوا عليكم كانوا جميعـا ظـالمين ومحتلين.. ولكن مـع ذلـك جـاءوا بـدين اقتنعتم بـه، أو اقتنـع بـه أسلافكم، لعلمكم ويقينكم أن أولئـك الـذين احتلـوا بلادكم لم يفرضوا عليكم الإسلام، وإنما فرضوا الجزيـة أو غيرهـا من المطالب المادية..

أما إن ذكرتم بأنكم لم تقتنعوا بالإسـلام، وأنـه فـرض عليكم فرضـا، حينهـا لن نكلمكم، لأننـا ذكرنـا أننـا نكلم

المؤمنين من الأمازيغ فقط، لا النازيين والصهاينة منهم.

ولهذا فإن هؤلاء المؤمنين يعرفون تماما أن الأمازيغ سرعان ما اندمجوا مع الواقع الجديد، بل سرعان ما تشكلت لهم دول أسسوها بأنفسهم، ودام حكمهم لها قرونا طويلة، وكان في إمكانهم حينها طرد العرب، أو إحلال الأمازيغية بدل العربية، لكنهم لم يفعلوا.

بل إن دولة المرابطين، وهي دولة أمازيغية، كانت من أحرص الدول على العربية والشعائر الإسلامية، بل كان قادتها من الفقهاء أنفسهم، مع أنها تأسست على يدي قبيلة لمتونة الأمازيغية، واعتمدت في بدايتها على العصبية الصنهاجية بعد التحام عدد من قبائلها الكبيرة.

لكنها مع ذلك حرصت على الروح العربية الإسلامية المبنية على اعتقاد مالكي سني، ولذلك سمت نفسها تسمية معبرة عن ذلك، وهي [دولة الرباط والإصلاح].

وفوق ذلك كله، فقد سيطرت على رقعة جغرافية تمتد من المحيط الأطلسي غربًا وبلاد شنقيط وحوض نهر السنغال جنوبًا، وامتدّت شرقًا لتحاذي إمبراطورية كانم وتزاحمها على بحيرة تشاد في الصحراء الكبرى. وامتد هذا المجال في الشمال لتشمل أجزاء من شبه الجزيرة الأيبيرية، وسيطرت على الأندلس.

وهكذا الدولة الموحدية، والتي تأسست على أنقاض دولة المرابطين، واستمر حكمها ما يقارب مئة وخمسين سنة، واستطاعت أن تفرض سيطرتها على كامل الشمال الإفريقي الغربي بالإضافة إلى بلاد الأندلس.. فقد أسس هذه الدولة عبد المؤمن بن علي الكومي الذي ينتمي إلى قبيلة الكوميّة من قبائل الأمازيغ، وكان أوّل حاكم فعلي

لدولة الموحّدين.

ومع ذلك فقد كان لهذه الدولة الأمازيغية اهتمام كبير بالإسلام والعربية، ولم تعتبرهما احتلالا، ولا اختراقا للمغرب، بل إنها أسست الكثير من المدارس، ورعت الحياة الثّقافيّة والعلميّة في المغرب والأندلس.

وهكذا نرى أكثر دول المغرب تتأسس على أياد أمازيغية حتى ما كان منها ظاهر العروبة، فإن الذي استقدمه أو اقتنع به، أو دعاه إلى الحكم هم الأمازيغ أنفسهم..

فالفضل في تأسيس دولة الأدارسة واستقلالها عن العباسين يعود إلى قبيلة آوربة الأمازيغيّة، التي استضافت إدريس الأول مؤسس الدولة عندما لجأ إليها هارباً، وقد دعمته حتى استطاع اتخاذ مدينة وليلي مرتكزاً له ضم كل من فزاز وتلمسان، وبعد اغتيال إدريس الأول بمكيدة من الخليفة العباسيّ، استطاع ابنه إدريس الثاني بناء مدينة فاس وبسط نفوذه على مناطق أوسع من المغرب.

وهكذا كان الحال مع الدولة الفاطمية التي أسستها في الحقيقة قبيلة كتامة، وهي قبيلة أمازيغية تسكن في المنطقة الشرقية من دولة الجزائر الحالية، في منطقة القبائل وماحولها، والجزء الشرقي للجزائر.

فهذه القبيلة هي التي قبلت دعوة عبيد الله المهدي لتأسيس الدولة الفاطمية، مثلما فعلت قبيلة آوربة مع الدولة الإدريسية، بل لولاها لم تتأسس، فقد ساهمت في فتوحاتها، حيث كان الخلفاء الفاطميون يعتمدون في أغلب جيوشهم على أفراد قبيلة كتامة إلى أن أصبحوا فيما بعد ذلك عصبة الحكام الفاطميين وأصحاب دولتهم.

وهكذا نجد العرق الأمـازيغي هـو المسـيطر على كـل الدول التي حكمت المغـرب أو أكثرهـا، وكـان في إمكـان تلك الدول جميعا أن تقضي على العربية، وتطردها، وتحل بدلها الأمازيغية، لكنها لم تفعل.

بل إن تلك الدول مع مـا أتيح لهم من قـوة وسـيطرة ورجـــال علم، لم تفكـــر في تأســـيس مـــدارس خاصـــة بالأمازيغيــة، ولا في تـأليف الكتب فيهـا في نفس الــوقت الــذي كـانت تشــجع فيــه المــؤلفين بالعربيــة، وتؤســس المدارس العربية.

لـذلك نقـول لهـؤلاء الـدعاة: كـان التـاريخ جميعـا في صفكم.. ولم تكونوا في يوم من الأيام محتَلين.. ولــذلك لا تلصـقوا أي تهمـة بـالعرب أو العربيـة.. وإن كـان لكم أن تفعلـوا فـاتهموا الـدول الـتي حكمتكم، وهي دول أسسـها أجــدادكم وأســلافكم، ومــع ذلــك لم تكن لهــا أي علاقــة بدعايتكم وعنصريتكم.

الأعراق.. والدورات الحياتية

يتصور البعض أن العرق والنسب شيء ذاتي لازم لجوهر الإنسان لزوما ذاتيا، لا انفكاك له عنه.. وليس مجرد لزوم عرضي مرتبط بزمن معين، ومرحلة معينة، لغاية تكليفية معينة..

وهذا التصور تنشأ عنه أوهام كثيرة جدا في الأفعال والمواقف تتنافى مع مقتضيات التكليف الشرعي، ولذلك نحتاج إلى العودة إلى المصادر المقدسة للتعرف على حقيقة الأمر، حتى لا نشغل حياتنا بأعراض حقيقتنا، ونغفل عن جوهرها.

والمصادر المقدسة تعتبر العرق والنسب والشعوب والقبائل قاصرة على هذه الفترة الحياتية التكليفية القصيرة التي نعيشها على هذه الأرض، أما ما عداها من الفترات، فقوانين الأنساب فيها مختلفة.

ذلك أن هناك ثلاث فترات كبرى يعيشها كل إنسان.. أولاها ما يعبر عنه بعالم الذر.. والثانية ما يعبر عنه بالنشأة الأولى.. أو هي نشأتنا الحياتية الدنيوية القصيرة.. والثالثة ما يعبر عنه بالنشأة الأخرى، وهي ما بعد الموت من البرزخ والقيامة وغيرها.

أما الفترة الأولى، وهي فترة عالم الذر.. وهي التي عبر عنها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172]، فهي الفترة التي كان البشر فيها جميعا في محل واحد، وكانوا أشبه بالإخوة، فليس

هناك متقدم فيهم، ولا متأخر.. بل جميعهم كـان في محـل واحد.. وكلهم شهدوا بتلـك الشـهادة الواحـدة.. ولـذلك لم تكن بينهم حينها أنساب ولا شعوب ولا قبائل.

لكن مشيئة اللـه شـاءت أن تقلبهم في الأرحـام، وأن تقذف ببعضهم إلى أراضٍ وشـعوب، وتقـذف بـآخرين إلى أراضٍ أخرى، وشـعوب أخـرى، ليحصـل الابتلاء.. فـالطيب منهم يتعامل مع إخوانه في الإنسـانية على أسـاس نسـبه الأول، والمتكـبر منهم يتعامـل مـع إخوانـه على أسـاس الأرضٍ التي نزل فيها، والشعب الذي نبت بين جنباته.

وقـد قـال تعـالى معـبرا عن حقيقـة هـذه المرحلـة، ومقاصـدها: ﴿يَاأَيُّهَـا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـاكُمْ مِنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَـارَفُوا إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عِنْـدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: 13]

أما المرحلـة الثالثـة، وهي النشـأة الأخـرى، فقـد ورد التصرح في النصوص المقدسـة بتلاشـي الأنسـاب حينهـا، وعـدم فائـدتها، قـال تعـالى: ﴿فَـإِذَا نُفِخَ فِي الصُّـورِ فَلَا أَنْسَـابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَـاءَلُونَ (101) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُـهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِـدُونَ (103)﴾ [المؤمنون: 101 - 103]

وقـد ورد في النصـوص تفصـيلات كثـيرة ترتبـط بالتصنيف البديل عن ذلك التصنيف، منها قولـه تعـالى في تقسيم الشـعوب حينهـا إلى ثلاثـة أقسـام: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًـا ثَلَاثَـةً (7) فَأَصْـحَابُ الْمَيْمَنَـةِ مَـا أَصْـحَابُ الْمَيْمَنَـةِ (8) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَـا أَصْحَابُ الْمَشْـأَمَةِ (9) وَالسَّـابِقُونَ السَّـابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُـونَ (11)﴾ [الواقعـة: 7 - 11]

فهذه الآيات الكريمة تنص على أن الأنساب تتلاشى في تلك الدورة الحياتية الكبرى والدائمة، ويصبح التصنيف حينها، ليس على أساس الشعوب والقبائل، وإنما على أساس المعتقدات والأخلاق والقيم.. وقد قدم لتلك الآيات الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3)﴾ [الواقعة: 1 ـ 3]، فمن أول خصائص يوم الواقعة أنها تخفض الكثير ممن كان مرفوعا، وترفع الكثير ممن كان منخفضا، فيعز بها قوم، ويذل بها آخرون.

وقد عبر الله تعالى عن تلاشي الأنساب حينها، فقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37)ـ ﴾ [عبس: 34 -ـ 38]، والشأن الذي يغنيه هو الكسب الذي كسبه، والعمل الذي عمله، لا ما فرض عليه من أرض أو نسب أو لغة أو أي شيء آخر.. فالله لا يحاسبنا إلا على ما اكتسبناه.

هذه خلاصة مبسطة للمعارف الكبرى التي يدل عليها القرآن الكريم في هذا الجانب، وهي تجعل كل عاقل ينصرف للبحث عن الشعب الذي يريد أن ينتسب إليه في الدورة الحياتية الكبرى.. هل هو شعب السابق المقربين، أم شعب أهل اليمين، أم شعب أهل الشمال؟

فالخيار لنا في أن نكون أشرف الشعوب.. كما أن الخيار لنا في أن نكون أرذلها.. فالشرف والرذالة تتحققان بالكسب، لا بالنسب، وبالعَرق، لا بالعِرق، وبالجهد لا بالدعوى.

إلى الباحثين عن أنسابهم

إلى الباحثين عن أنسابهم في دفاتر الوراقين، ومخابر المحللين، ومتـــاحف الجمـــاجم، دعكم من البحث عن الأنســاب المفروضــة عليكم، وابحثــوا لكم عن أنســاب تصنعونها بأيديكم.. تصنعونها بقلوبكم وعقولكم وأرواحكم، فهي أجدى لكم، وأكثر نفعا.. فالله لن يسألكم عما فـرض عليكم من أنساب، وإنما يسألكم عما صـنعت أيـديكم من أنساب.

يـوم القيامـة لن تغـنيكم تلـك الأنسـاب الطينيـة، ولن تشـفع لكم عنـد اللـه، كمـا أنهـا لن تضـركم.. فهي مثـل العدم.. لا تنفع ولا تضـر.. ومن العبث أن يمضـي الإنسـان عمره في البحث والاهتمام بما لا يضره، ولا ينفعه.

لقد ذكر الله تعـالى ذلـك في كلماتـه المقدسـة الـتي تحمل كل حقائق الوجـود، وكـرره مـرات كثـيرة لتعتـبروا، وتتركوا العبث، فقـد قـال مقـررا هـذه الحقيقـة الوجوديـة الكبرى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَـالٌ وَلَا بَنُـونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَــلِيمٍ (89)﴾ [الشــعراء: 88،ــ 89]، فالنســب الحقيقي بحســب هــذه الآيــة الكريمــة يحــدده القلب، لا الجينـات، ولا الجمـاجم، ولا دفـاتر الـوراقين.. ففي اليـوم الـذي تسـقط فيـه أنسـاب الطين، سـوف تحيـا أنسـاب القلـوب لتتشـكل منهـا القبائـل والعشـائر والبطـون في الدورة الحياتية الجديدة التي تنتظرنا جميعا.

حينهـا يمـيز النـاس بأنسـاب جديـدة، فهنـاك شـعب القلـوب السـليمة، وهنـاك شـعب القلـوب الخبيثـة.. قـال تعـالى: ﴿ لِيَمِـيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَـلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَـهُ جَمِيعًـا فَيَجْعَلَـهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ

هُمُ الْخَاسِرُونَ [الأنفال: 37]

أما شعب القلوب السليمة، فهو ممتلئ بالأنبياء والأولياء والصالحين والمخبتين وعباد الرحمن الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا [الفرقان: 63].. ففيه إبراهيم البابلي، ولقمان النوبي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي.. فيه شعوب كثيرة نسيت أنسابها الطينية، وراحت تبحث عن أنسابها الروحية الحقيقية.

أما شعب القلوب الخبيثة، ففيه كل عتل جبار مستكبر ظالم، وويل ثم ويل لمن راح يعتز بنسب الجبابرة والمتكبرين، وقد ورد في الحديث الشريف أن رجلين على عهد رسول الله ﷺ انتسبا، فقال أحدهما: (أنا فلان بن فلان، فمن أنت لا أم لك؟)، فقال رسول الله ﷺ: (انتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام، فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان.. حتى عد تسعة، فمن أنت لا أم لك؟)، قال: (أنا فلان بن فلان بن الإسلام)، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن هذين المنتسبين: أما أنت أيها المنتمي أو المنتسب إلى تسعة في النار، فأنت عاشرهم، وأما أنت يا هذا المنتسب إلى اثنين في الجنة، فأنت ثالثهما في الجنة)[1]

وفي حديث آخر، قال ﷺ: (إذا كان يوم القيامة أمر الله مناديا ينادي: ألا إني جعلت نسبا وجعلتم نسبا، فجعلت أكرمكم أتقاكم، فأبيتم إلا أن تقولوا: فلان بن فلان خير من فلان بن فلان، فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم، أين المتقون؟)[2]

---

[1] رواه الإمام أحمد .

[2] رواه الطبراني في الصغير والأوسط.

ما كان محمد أبا أحد من رجالكم

لا أتألم لشيء كما أتألم لقول بعضهم: قال جدي رسول الله.. وكان جدي رسول الله.. وليس ذلك تكذيبا له في نسبه، فمعاذ الله أن أكذب مسلما، ولكني أشعر بنوع من الخيلاء والفخر تفوح وراء تلك الكلمات.. والفخر والخيلاء محرمان حتى لو ارتبطا بالانتساب لرسول الله ﷺ.

والذي يردد أمثال تلك العبارات يطلب من حيث لا يشعر من المحيطين به تقديرا زائدا، لا لذاته، ولا لعمله، ولا للقيم التي يحملها، وإنما لمجرد كونه ينتسب لبيت النبوة.

وهو نسب عظيم وشريف وحقيق أن يفرح به، ولكنه لن يغني عن صاحبه شيئا إن لم يقدم العمل الصالح الذي ينفعه عند الله.. فالله تعالى لا تضيع عنده الموازين، وقد قال في كلماته المقدسة: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: 123]

وقال رسول الله ﷺ مخاطبا أقاربه الأقربين: (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئا. يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئا. ويا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئا. ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئا)(1)

(1) رواه البخاري 8 / 386 ، ومسلم رقم (206)

بل إن الله تعالى ضرب لنا المثل على ذلك بابن نـوح عليه السلام الذي عاتب الله فيه نوحا لكونه أراد التوسـط لابنه، فقال له: ﴿يَـانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِـكَ إِنَّهُ عَمَـلٌ غَيْـرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُـونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود:46]

هذا هو العدل الإلهي الذي ينسجم مع الكـون جميعـا، والذي نص عليه بصراحة ليس فوقها صراحة قوله تعـالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم:39]

وهو الذي فهمه أولياء اللـه وربـانيو هـذه الأمـة، وقـد قال الشيخ محمد الغزالي معبرا عن ذلك: (أيها الولد.. لـو قـرأت العلم مائـة سـنة، وجمعت ألـف كتـاب، لا تكـون مستعدا لرحمة الله تعالى إلا بالعمـل لقولـه تعـالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَـانِ إِلاَّ مَـا سَـعَى﴾ [النجم:39]، وقولـه تعـالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْـرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:110].. ودليل الأعمال أكـثر من أن يحصى، وإن كان العبـد يبلـغ الجنـة بفضـل اللـه تعـالى وكرمه، لكن بعـد أن يسـتعد بطاعتـه وعبادتـه؛ لأن رحمـة الله قريب من المحسنين)[1]

لكن النظـرة العنصـرية الـتي راحت تفـرق بين الأمم والشعوب، راحت تستعمل هـذا النسـب الشـريف وسـيلة للكبر والفخر والتعالي، بل إلى ما هو أكثر من ذلك.. وقـد رأيت بعضـهم يمسـك كتابـا بعنـوان (منـار الإشـراف على فضل عصاة الأشراف ومواليهم من الأطـراف)، وهـو يـرد به على من نهاه عن بعض الجرائم التي يرتكبها، قائلا لـه: الزم أدبك، فأنت تتحدث مع أبناء محمد.. وهم يـأمرون ولا يؤمرون.. وينصحون، ولا يُنصحون..

---

[1] رسالة أيها الولد.

ثم راح يقرأ له من الكتاب ما أقنعه بأن القلم رفع عن الصبي والمجنون والنائم والمنتسب لآل بيت النبوة.

وأحسن ما يجاب به هؤلاء ما ورد في الإنجيل عن المسيح عليه السلام، وهو يوبخ اليهود الذين راحوا يتيهون على الناس بقرابتهم لإبراهيم عليه السلام، فقال لهم: (يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة. ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم: لنا إبراهيم أبا. لأني أقول لكم: إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم) [لوقا: 3/7-8]

الناس مُصدَّقون في أنسابهم

من القواعد الفقهية المعروفة أن [الناس مؤتمنون على أنسابهم، أو مُصدَّقون في دعاواهم المرتبطة بها]، وهي قاعدة شرعية مبنية على حسن ظن المسلمين بعضهم ببعض.. وهي تحل لنا بعض المعضلة التي يسوقها إخواننا من دعاة الأمازيغية.. ذلك أنهم ينشرون بين جماهيرهم أن كل الجزائر أمازيغ، ونسبة العرب فيها محدودة جدا.

لكنا إن عدنا إلى الواقع وسألنا أكثر سكان الولايات الجزائرية من مشرقها إلى مغربها، ومن شمالها إلى جنوبها.. نجدهم جميعا يذكرون أنهم عرب.. ويتكلمون العربية، ولا يعرفون الأمازيغية.. وبعضهم يأتي بكتب التاريخ كتاريخ ابن خلدون أو غيره ليثبت ذلك.. وبعضهم يغضب غضبا شديدا إن نوزع في نسبه الذي سمعه من آبائه وأجداده.

سيروا حيث شئتم ابتداء من الولايات الغربية التي يذكر جميع سكانها أو أكثرهم أنهم عرب.. ثم سيروا إلى الولايات الوسطى حيث لن تجدوا إلا ولايتين فقط يدعون أنهم أمازيغ مع أن الكثير منهم خصوصا من أصحاب الزوايا يذكرون أنهم سادة أشراف، وبعض المحيطين يذكرون أنهم من قبائل عربية مع أنهم يتكلمون الأمازيغية.

ثم سيروا إلى الشرق الجزائري، حيث لن تجدوا فيه إلا ولايات محدودة جدا، وفي مناطق محدودة تدعي أنها أمازيغية.. وهكذا إذا سرنا إلى الصحراء الجزائرية التي ألفت المؤلفات في الأصول العربية لسكانها، والتي لا

يزال أهلها ينطقون العربيـة سـليمة من كـل تحريـف، بـل إنها أدق من لغات العرب المشارقة أنفسهم.

فكيف يسـتجيز دعـاة الأمازيغيـة لأنفسـهم أن يكـذبوا جميـع هـؤلاء، ويشـككوهم في أنسـابهم الـتي ورثوهـا عن آبـائهم وأجـدادهم، وهم يفرحـون بهـا كمـا يفـرح الأمـازيغ بنسبهم إلى يوغرطة وماسينيسا والكاهنة؟

ألا يرون في ذلك نوعـا من التـدخل في حيـاة النـاس الشخصية.. خاصة وأن كبار المؤرخين الجزائريين وغيرهم يـذكرون مـدى انتشـار العنصر العـربي في الجزائـر في فـترات التـاريخ المختلفـة، حـتى أن الشـيخ عبـد الـرحمن الجيلالي ذكر أن العنصـر العـربي في الجزائـر لا يقـل عن 70 في المائة، وأثبت ذلك من خلال كتابه في التاريخ.

نحن لا نريد أن نقرر هنا أن هؤلاء النـاس صـادقون أو كـاذبون.. لكن احترامـا لهم، ولكـون الأمـر لا يشـكل أي أهمية.. نتساءل ما جدوى التشكيك في أنسـاب النـاس؟.. وما جدوى إثـارة النعـرات العرقيـة؟.. اتركـوا النـاس ومـا ورثوه عن آبائهم وأجدادهم.

وإن شـئتم الخـروج من التخلـف، فليس هـذا هـو السبيل.. وإن كان لكم حقد على آل سعود أو آل نهيان أو آل ثـان.. فليس العـرب حكـرا عليهم.. العـرب يمثلهم اليمنيون والفلسطينيون واللبنانيون وكـل المقـاومين، أمـا العرب المنبطحون، فقـد تـبرأوا من عـروبتهم كمـا تـبرأوا من هويتهم، ولا يمكن اعتبـارهم نموذجـا للإنسـان العـربي الأصيل.

وإن كانت لديكم مشكلة مع التاريخ، فالتاريخ لا يمثـل الإسلام، ولا علاقة له بالعربية، بل إن أكثر الحكومات التي

حكمت المغــرب العــربي كــانت من الأمــازيغ.. فهــل استطاعوا أن يحلوا مشكلة التخلف والاستبداد؟

من أعجب ما سمعته من بعض دعاة الأمازيغية قصة رجل جزائري يقيم في بريطانيا، ذكروا لي أنه كان يعتبر نفسه وعائلته.. وهي من الأسر العلمية الكبيرة في الجزائر.. عائلة من الأدارسة المنتسبين للمولى إدريس.. سليل بيت النبوة.

لكنه ـ كما ذكروا لي ـ عندما قاموا بتحيل جيناته، في أوروبا طبعا.. وجدوا أنه أمازيغي.. وأن كل تاريخه انهار بمجرد ذلك التحليل الذي قام به..

وقد فرح هؤلاء طبعا فرحا شديدا، لأنهم استطاعوا أن يخلصوا الجزائر من عائلة كبيرة تنتسب لبيت النبوة.. كما أنهم استطاعوا أن يضيفوا إلى الأمازيغ عائلة جديدة.

وللأسف فإن هؤلاء الذين يرددون هذا الكلام لا يعرفون العلم الحديث، ولا قدراته.. ويتصورون أنه توجد في جينات الإنسان أسماء القبائل والعشائر والبطون، ولا يعلمون أن ذلك التحليل محدود جدا، ومرتبط بالنسب القريب، ولا علاقه له بالنسب البعيد..

لقد قلت لهؤلاء: لو أن هؤلاء الذين تحدثتم عنهم قاموا بتحليل جينات الإمام العظيم زين العابدين السجاد، لوجدوا فيه جينات فارسية، لأن أمه غزالة كانت من بنات كسرى، فهل كان الإمام زين العابدين فارسيا؟

وهكذا كان الإمام موسى الكاظم، وهو من أئمة أهل البيت الكبار، يحمل جينات أمازيغية، فأمه السيدة حميدة المغربية والتي لقبها الإمام الباقر بالمحمودة، ولقبها الإمام الصادق بالمصفاة من الأدناس، كانت أمازيغية..

فهل كان الإمام موسى الكاظم أمازيغيا بهـذا الاعتبـار، أم كان إماما من أئمة أهل البيت؟

وهكذا كان الإمام الهادي، وهـو من أئمـة أهـل الـبيت الكبار، يحمل جينات أمازيغيـة، فأمـه السـيدة أُمّ الفضـل، سمانة المغربية، أو سوسن المغربيـة، وكـانت من أفضـل نساء زمانهـا، وقـد تـولّى الإمـام الجـواد تربيتهـا وتهـذيبها، فكانت من القانتات المتهجّدات، وقـد قـال الإمـام الهـادي في حقّهـا: (أُمّي عارفــة بحقّي، وهي من أهــل الجنّــة، لا يقربهـا شـيطان مـارد، ولا ينالهـا كيـد جبّـار عنيـد، وهي مكلوءة بعين الله التي لا تنام)

وهكذا نجد في كل نسل الأدارسة عرقا أمازيغيـا يبـدأ من كنزة الأوربية الأمازيغية، زوجة إدريس بن عبد الله بن الحســن، بن علي بن أبي طــالب، وأم إدريس بن إدريس مؤسس مدينة فاس.. والتي لم يكن دورها فقـط مرتبطـا بـولادة المـولى إدريس، وإنمـا كـان لهـا دور كبـير في في إشارتها على حفيـدها محمـد بن إدريس بتقسـيم المغـرب بين إخوته، فكانت بذلك أول خطوة نحو اللامركزية.

وقـد اسـتمر ذلـك الاحتكـاك والاختلاط بين الأدارسـة والأمازيغ على فترات التاريخ المختلفة، خاصة بعـد النكبـة الكبــيرة الــتي حصــلت لهم، والــتي جعلتهم يفــرون إلى المنـاطق الأمازيغيـة، ويؤسسـوا فيهـا الزوايـا ودور العلم، ويحتكوا بأهلها احتكاكا شديد.

مثلما حصل ذلك في آل البيت الذين فـروا إلى الهنـد أو فارس أو إفريقية أو إلى أي منطقة من مناطق العالم، والتي جعلتهم، وبمرور الزمن يكسبون الكثـير من صـفات أهلها..

ولو طبقنا تلك المقـاييس الـتي يضـعها هـؤلاء، لكـذبنا قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ شَـانِئَكَ هُـوَ الْأَبْتَـرُ﴾ [الكـوثر: 3]، لأنهم يشككون في كل نسب يمتـد إلى بيت النبـوة بحجج أوهى من بيت العنكبوت.. بل لا يقبل بها حتى علمـاء البيولوجيـا أنفسهم..

وطبعا لا نريد من هذا المقال أن نثبت نسبا أو ننفيــه، وإنمــا نــردد العبــارة الــتي رددناهــا كثــيرا، والــتي رددهــا الفقهــاء، واعتبروهــا قاعــدة من قواعــد الشــريعة، وهي [الناس مصدقون في أنسـابهم]، وإلا فإننـا لـو فتحنـا هـذا المجال، فستصـبح الأعـراض مسـتباحة، والقـذف شـرعيا، وتعود الجاهلية الجهلاء من جديد.

هل هناك جينات عرقية؟

من الأساليب التي مارسها الاستعمار الفرنسي ليقنع بها المؤسسين للحركة الأمازيغية، لإخراجهم من إطار الحضارة العربية التي عاش فيها أسلافهم، هو ما يطلق عليه علميا [العنصرية العلمية] (1)، وذلك بجعلهم يعتقدون أن العرق الأمازيغي عرق مميز.. وأنه قدم من أوروبا.. وأن الجمجمة الأمازيغية تختلف عن الجمجمة العربية، وأنها أقرب للجمجمة الأوربية.

بل قال لي بعضهم، وهو يحاورني بكبرياء: ألا ترى لوننا الأشقر، وعيوننا الملونة.. هل يمكن ألا تكون هذه الألوان قادمة من أوروبا؟

ولهذا نرى هؤلاء الدعاة يصدقون كل ما يكذب به عليهم المستعمر ليفرق بينهم وبين قومهم.. مع العلم أن كل الدعاوى المرتبطة بذلك دعاوى غير صحيحة من الناحية العلمية، فليس هناك في التقنيات العلمية ما يؤيد تلك الدعاوى العنصرية.

وبما أن المسألة علمية محضة، والمصادر فيها كثيرة جدا، وربما يصعب على القارئ العادي فهمها أو استيعابها، فلهذا سأقتبس من مقال يبسط المسألة بعنوان [خرافة العِرق: هل العرق مركب بيولوجي؟]

والذي قدم له صاحبه الأستاذ شادي عبد الحافظ بقوله: (يهدف هذا المقال –ببساطة ووضوح– إلى هدم ما

1() تعتمد العنصرية العلمية على توظيف الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، والقياسات الجسمية، وعلم قياس الجماجم، وغيرها من التخصصات أو شبه التخصصات، في دعم نظرية تصنيف البشر إلى أجناس بشرية منفصلة جسديًا، بحيث تكون أجناس محددة أكثر رقيًا من أجناس أخرى..

نتصور في أحاديثنا اليومية أننا نصفه حينما نتحدث عن الأعراق البشرية، عن أنها مجموعات منفصلة من البشر تميزها صفات جينية مرتبطة بالذكاء، درجات العنف، المستويات التعليمية..)

ثم ذكر هذا الباحث أن هناك إجماعا بين متخصصي البيولوجيا على أن تلك الدرجة من الانحياز للنمط الجيني في العرقية الطبيعانية ليست صحيحة بالمرة. (فالعرق هو مركب اجتماعي مرتبط بالثقافة واللغة وعادات الشعوب والمجموعات البشرية)، وليس مرتبطا بالنواحي البيولوجية، ولا بالجينات، ولا بـ DNA

وضرب مثلا لذلك بتأثير تغير الأجندات السياسية في الولايات المتحدة، حول طبيعة العرق من فترة لأخرى، فالمكسيكيي الأصل، حتى سنة 1929 كان يعتبر شخصا أبيض له حكم البيض، لكن عند حاجة الدولة لإيقاف الهجرة، وفي سنة 1930 صارت البحوث تذكر أنه ليس أبيض.. أي أنه من عرق مختلف.. وفي بداية الأربعينيات، وأثناء الحرب العالمية الثانية، وعند حاجة أمريكا للعنصر المكسيكسي حولته البحوث إلى أبيض من جديد.

وهكذا كانت البحوث المرتبطة بالأعراق تستثمر في خدمة التوجهات السياسية والاقتصادية، وغالبا كما يذكر الباحث ــ (ما تم الزج بالبيولوجيا في تلك المزاعم لإعطائها دعما صلبا)

وهذا يذكر بما فعله المستعمر الفرنسي ــ وهو أخ للمجرم الأمريكي ـ في استخدام هذه الأداة الكاذبة في الحرب الناعمة التي يفتت بها الشعوب.

لا يمكننا في هذا المحل أن نورد كل ما ذكره الباحث

من معلومات ووثـائق، لكـني أقتصـر منهـا فقـط على مـا ذكره من أن (درجة التشابه في المحتـوى الجيـني للبشـر تبلـغ 99.9 بالمائـة، يعـني ذلـك أنـه يبقى لنـا فقـط 0.1 بالمائة للتنوع، وضمن هـذا الـ 0.1 ظهـرت نتيجـة معامـل التثبيت.. ما يعني أن كل البشر يتشاركون في 88 بالمائـة من محتوى الـ 0.1 بالمائة المسـئول عن التنـوع الجيـني، بينمـــا يظهـــر الاختلاف فقـــط في 12 بالمائـــة من هـــذا المحتوى)

ثم بين أن ذلك الجـزء البسـيط جـدا، والمسـؤول عن التنوع الجيـني، لا يمكن أن يكتشـف بـه أي شـيء يرتبـط بالأعراق.. ولا بالجماعات البشرية..ونقل عن ورقية بحثيـة نشرت سنة 1972 من طرف [ريتشـارد لـوينتن]، بعنـوان [توزيـع التنـوع البشـري]، معلومـات مهمـة جـدا لا يمكن ذكرها هنا بتفاصيلها، لكن النتيجة هي أنـه وجـد أن (85.4 بالمائة من قيمة التنوع يتشارك فيها كل البشر.. وأن 8.3 بالمائة من درجة التنوع توجد بين أفراد من نفس العرق.. وأن 6.3 بالمائة فقط من درجة التنوع موجودة في أفـراد من أعراق مختلفة)

وذلك يعـني أن درجـة التنـوع الجيـني بين فـردين من نفس العـرق، كـدنماركي وبريطـاني مثلا، أكـبر من درجـة التنوع الجيني بين أفـريقي وآسـيوي، أي أن المسـافة بين فـردين من دول وسـط وجنـوب أفـريقي، في المحتـوى الجيني، قـد تكـون أكـبر من المسـافة بين شـخص يابـاني وآخر إيطالي.

ويعـني ذلـك أن تقسـيمنا للعـرق، والمبـني على أن هنـاك مجموعـات محـددة من الأفـراد تمتلـك درجـة من التجـانس فيمـا بينهـا، وتختلـف في تركيبهـا الجيـني عن

مجموعة أخرى، غير صحيح.

وختم هذا الباحث المحترم بحثه هذا بقوله: (لـو عـدنا للـوراء فقـط 50 جيلا فـإن كـل البشـر -على قيـد الحيـاة الآن- سوف يتشاركون نفس الجد.. لو نزل كـائن فضـائي إلى الأرض حــالا لعــرّف البشــر على أنهم عــرق واحــد، لطالما تم استخدام تلك الكلمة البسيطة [عـرق] لإشـعال العالم، مرة بعد مـرة، وهـا نحن من جديـد نسـتعد لـدورة جديدة من الحماقة.. لـذلك فمـا أود أن أتسـاءل عنـه هنـا هـو: إلام سـوف نحـاول جـر العلم لمعاركنـا الخاصـة؟ كم حربا عالمية نحتاج لكي نقتنع أن مـا نفعلـه الآن هـو فقـط مبرر لغضبنا، ليس من آخرين، ولكن من ذواتنا؟)

هذه مقتطفات من المقال، وقد سقتها هنـا باختصـار، ومن شاء المزيد، فيمكنه أن يقرأه كاملا، ويضيف إليـه مـا كتبه ـ خصوصا ـ عبـد الوهـاب المسـيري حـول العنصـرية العلميــة، وخاصــة في موســوعته الممــيزة عن اليهوديــة والصـهيونية.. فالـدعوى الأيديولجيـة الأمازيغيـة لا تختلـف كثيرا عن دعاوى الصهيونية والنازية.

أركان الهوية

ربما يكون أساس الخلاف بين دعاة القومية ودعاة الإنسانية يكمن في تصور الأركان المشكلة للهوية، فبينما يصر دعاة القومية سواء العربية أو الكردية أو الأمازيغية على اعتبار العرق واللغة والأرض والدين عناصر أساسية في الهوية.. يصر دعاة الإنسانية، والذين أميل إليهم، وأعتبر نفسي واحدا منهم، أن الهوية تتشكل من عنصر واحد هو الإنسان.. وما عداه عارض على الهوية، وليس جزءا منها، ولا ركنا فيها.

أما عنصر العرق.. فقد نهينا عن اعتباره في النصوص المقدسة الكثيرة، وحتى لو اعتبرناه ركنا، فكل البشر مستيقنون من نسبهم إلى آدم عليه السلام، ولكنهم ليسوا متأكدين من نسبهم إلى غيره.. أو ليس لديهم من اليقين الكافي ما يحقق نسبتهم إلى غيره.. ولذلك فلا حاجة لاعتباره.

أما عنصر اللغة.. فاللغة وسيلة.. ويمكن أن تتبدل مع الزمن، فالمصريون كانت لغتهم قبطية، ثم تحولت إلى العربية.. وكثير من الأفارقة كانوا هاوسة، ثم تحولوا إلى فرنكفونيين.. وهكذا تحول الكثير من الأمازيغ إلى عرب.. لم يسمعوا من آبائهم ولا أجدادهم لغة غير العربية.

أما عنصر الدين.. فهو كذلك عرضة للتبدل والتغير، ولا يصح اعتباره ركنا في الهوية، فالعرب كانوا وثنيين أو مسيحيين قبل الإسلام، ثم تحولوا إلى مسلمين.. والأمازيغ كانوا مثلهم.. ثم تحولوا إلى الإسلام.

أما عنصر الأرض، فالأرض لمن يسكنها، وليس لمن

يملكها.. وكثير من العرب سافروا عـبر التـاريخ إلى جميـع منــاطق العــالم.. وهكــذا نجــد الكثــير من الأمــازيغ في فلســطين وســورية.. ونجـــد الكثـــير منهم هـــاجر إلى الأنــدلس.. فهــل يــأتي أحــد من النــاس اليــوم، ويقــول لإسبانية: إنك أرض أمازيغية.

وهكذا فإن الذي يضـع في الهويـة مثـل هـذه الأركـان يقع في حرج عظيم، ذلك أنه ـ كما نسمع اليوم من ينـادي بإحياء اللغة الأمازيغية أو الكردية ــ سـنرى من يـدعو إلى إحيـاء الـديانات الأمازيغيـة والكرديـة، وليس ذلـك ببعيـد.. فالــذي يفضــل أعلام الأمــازيغ قبــل الإســلام على أعلام المسلمين لا يستبعد منه أن يبحث في يوم من الأيــام عن بعض الحجارة التي كان يعبدها في تصوره أجـداده، ليعيـد عبادتها من جديد تحت أي شعار.

من محاسن اللغة العربية، وربمـا غيرهـا من اللغـات، أنها تفتح مجالات كثيرة للنسبة، فلا تربطها بالنسب فقط، وإنما تضم إليها أشـياء كثـيرة، منهـا مـا لـه علاقـة باختيـار الإنسان، ومنها ما ليس له علاقة..

ولذلك قد ينسب الشـخص إلى لغتـه، فهـو عـربي إن تحدث اللغة العربية، سواء كـان من العـرق العـربي أو لم يكن.. وهـذا تبـدأ مصـاديقه من أول العـرب المسـتعربة، الذين أطلق عليهم هذا اللقب لتحول لسانهم إلى العربي.

وربما يستدل لهـذا بمـا ورد في الحـديث أن قيس بن مطاطية جـاء إلى حلقـة فيهـا سـلمان الفارسـي وصـهيب الرومي وبلال الحبشـي، فقـال: هـذا الأوس والخـزرج قـد قاموا بنصرة هذا الرجل، فما بال هذا. فقام إليـه معـاذ بن جبل فأخذ تلبيبه ثم أتى به النبي ﷺ، فأخبره بمقالته فقام النبي ﷺ قائما يجر رداءه حتى دخل المسجد، ثم نودي أن الصلاة جامعة، وقال: (يا أيها الناس إن الرب واحد، والأب واحـد، وليسـت العربيـة بأحـدكم من أب ولا أم وإنمـا هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي)(1)

وينطبـق هـذا في الواقـع الحـالي على أكـثر الـدول النـاطق بالعربيـة، الـتي نطلـق عليهـا هـذا الوصـف بغض النظر عن اختلاف أنسابها.. فلذلك نسميها عربية للسانها، لا لأعراقهـا.. وبنـاء على هـذا يطلـق على الـدول الناطقـة بالإنجليزية وصف [الدول الانجلوسكوسونية]، وعلى الدول الناطقة بالفرنسية وصف [الفرنكفونية]

(1) تاريخ دمشق لابن عساكر (21/ 407)

أمـا النسـبة العرقيـة، فهي نسـب قـد تكـون قطعيـة صـحيحة في مجملهـا، لكنهـا تبقى ظنيـة من حيث الأفـراد والمجموعات.. وهذا ينطبق على أكثر الجماعات البشرية، باعتبار الاحتكاك الذي حصل بين البشر..

فلذلك كـان أحسـن مـا يقي البشـر من آثـار الصـراع العرقي هو العودة للنسـب المتفـق عليـه، وهـو آدم عليـه السلام، ولهذا نـرى القـرآن الكـريم يخـاطب العـرب بهـذا الوصـف، وبهـذه النسـبة، مـع أنـه نـزل بين قـوم يفتخـون بأنسابهم ويحرصون عليها.. ومع ذلك لا نجد فيه ولو نسبة واحدة لأي قبيلة من القبائل.

أما النسـبة الأرضـية، فهي تطلـق على سـاكن الأرض غـير المغتصـب لهـا، ولا المحتـل.. ولـذلك فـإن أرض فلسـطين تنسـب للسـاكنين فيهـا غـير المسـتعمرين الظـالمين.. وهـذه النسـبة تصـدق على كـل من سـكن فلسطين غير محتل لها، سواء كانوا من اليبوسـيين أو من العرب الوافـدين، أو من المغاربـة.. أو من غـيرهم.. بغض النظـر عن دينهم سـواء كـانوا مسـلمين أو مسـيحيين أو يهودا من غير الصهاينة.

وهكـذا يقـال في النسـبة الدينيـة والمذهبيـة، والـتي تكـون باختيـار الإنسـان ورغبتـه.. ولهـذا قـد نراهـا تتغـير بحسب الأزمنة.. فالجزائر مثلا سادت فيها مذاهب متعددة بحسـب المراحـل التاريخيـة.. وهكـذا كـل الـدول العربيـة وغيرها.

وأذكـر في الأخـير حكمـة وردت في [مقامـات بـديع الزمان الهمذاني(1)]، قال فيهـا عيسـى بن هشـام موجهـا السـؤال لأبي الفتح الإسـكندري: أين منبت هـذا الفضـل؟

(1) مقامات بديع الزمان الهمذاني، (ص: 21)

فقـال: نمتـني قـريش، ومهـد لي الشـرف في بطائحهـا، فقال بعض من حضر: ألست بأبي الفتح الإسـكندري؟ ألم أرك بالعراق، تطوف في الأسواق، مكديا بالأوراق؟ فأنشأ يقول:

إن لله | أخذوا العمر
فهم | بأ، ويضحون

وفي مقامة أخرى(1)، قال عيسى بن هشام: قلت لما تآنسنا: من أين مطلع هذا البدر؟ فقال:

إسكندرية | لو قر فيها
لكن ليلي | وبالحجاز

1() مقامات بديع الزمان الهمذاني، (ص: 84)

هل بدأت الحرب الناعمة في الجزائر

الحرب الناعمة كاسمها، لا تبدأ بـالتطرف ولا بـالعنف ولا بأي شيء قد يدعو إلى إخماد لهيبها في أول نشـوئها.. بـــل تبـــدأ ببطء وهـــدوء إلى أن تضـــمن اســـتقرارها واستمرارها وتوفير البيئة الحاضنة لها، والجمهور المـدافع عنها.. وحينذاك تشب لتحرق الأخضر واليابس.

وأنـا أرى في الجزائـر ومن خلال منشـورات بعضـهم على وسائل التواصل الاجتمـاعي، تحضـيرا كثيفـا وسـريعا لوقود نار الفتنة التي لن تترك أحدا إلا أصابته..

وهذه الفتـة أخطـر من سـابقتها، فهي لا تلبس لبـاس الدين.. ولكنها تلبس لباسا العرق واللغة واللهجة والتميـيز العنصري بين الجهـات والمنـاطق.. وكـل ذلـك أخطـر من الفتنـة المتلبسـة بلبـاس الـدين.. فالـدين لا وطن لـه، ولا منطقــة محــددة تحميــه، ولــذلك لا خطــر من التقســيم بسببه.. لكن هذه الأيقونات التفتيتية الجديدة تنذر بالحرب والتقسيم.

فـالجزائر مثلهـا مثـل كـل دول العـالم تحـوي أعراقـا مختلفــة، ولهجــات متباينــة، وعــادات وتقاليــد متناقضــة.. والحديث في مثل هـذه الأمـور والتنـابز بسـببها هـو الـذي يهيئ الأرضية الأولى للحرب الناعمة، وهي إثـارة الأحقـاد، وإشعال الفتن بسببها.

لذلك أدعو كل وطني غيور من هذه القطعة الشـريفة من العـالم الإسـلامي، أن يتنـازل عن خصوصـياته، ويهتم بالمشتركات التي تجمعه مع إخوانـه في الـوطن.. ليسـير الجميـع نحــو القيم الحضـارية الرفيعــة الــتي لا يمكن أن

تحصل من دون استقرار.

وأنا لا أدعو بهذا أي عرق لأن ينسى عرقـه، ولا لغتـه، ولا تقاليـده.. ولكن فـرق بين أن يهتم بهـا، وبين أن يـدعو إليهـا.. الاهتمـام بهـا شـأن شخصـي، والـدعوة لهـا دعـوة للفتنة، وإحيـاء للعصـبية، وتوفـير للبيئـة الحاضـنة للحـرب الناعمة التي تطحن الأخضر واليابس.

الحرب الناعمة.. وتعدد الرايات

أول بداية الحرب الناعمة رايات يزاحم بعضـها بعضـا، وأعلام يريد بعضها أن يلغي الآخر، ليحل بدله.. هكذا بدأت فتنة ليبيا.. ومثلها فتنة سـوريا.. ومثلهـا فتن الأكـراد الـتي تطل علينا كل يوم بوجه جديد، وباستراتيجيه جديدا.

وأخشى أن يكون مثلها أيضا تلك الراية الجديدة الـتي ترفع في الجزائر باسـم الأمازيغيـة.. ويوشـك أن تزاحمهـا راية أخرى باسم العروبة.. ورايات أخرى بأسـماء أخـرى.. وحينها يبدأ التفتيت النفسي والاجتمـاعي ليحضـر للتفـتيت الجغرافي.. وهو تفـتيت يمكن أن يبـدأ، ولكنـه لا يمكن أن ينتهي..

ولهذا أعتبر كل رايـة ترفـع غـير رايـة الـوطن الواحـد راية فتنة وجاهلية وعصبية..

يمكن لأي شـخص أو مجتمـع أو جهـة أن تمـارس مـا تشـاء من التقاليـد لكن تحت رايـة بلـدها الوحيـدة.. فهـل يضمن هـؤلاء أن ينهض بعض الحمقى ليسـقط رايـة البلـد الواحد ويضع بدلها هذه الراية مثلمـا حصـل في المنـاطق الكردية؟

وهـل يضـمن ألا تتـدخل الجهـات المتربصـة بـالجزائر لتسيء لبعض الرايـات، وتتهم الطـرف الآخـر بتسـببه في ذلك.. لتشعل نار حرب جديدة؟

البعض يسـتهين بهـذا، ويتصـور أن الأمـر قاصـر على بعض الصغار.. ولكنه لا يدري أن الحرب تبدأ بالصغار، بــل تبدأ بمن دونهم.. وليست حرب داحس والغبراء منا ببعيد.

فالإنسـان إذا تـرك عقلـه، واستسـلم لعصـبيته، فإنـه

سيعود إلى ذلك الطور العبسي والذبياني.. وتعود الجاهلية المنتنة بكل أثقالها.. والفتنة نائمة وملعون من أيقظها.

لن تكون هناك حرب ناعمة في الجزائر

قبل بضعة أيام شاهدت مشهدا جميلا خفف عني بعض الحزن الذي أصابني من جراء ما رأيته من منشورات عنصرية، خفت أن تكون سببا في الحرب الناعمة التي يزمع الاستكبار العالمي التحضير لها في الجزائر، كما حضر لها في سائر المناطق العربية.

رأيت مجموعة طالبات مجتمعات يتحدثن قبل بدء الحصة الدراسية.. بعضهن كان من الأوراس الأشم.. وبعضهن من جبال جرجرة الشامخة.. وقبل أن أسمع حديثهن امتلأت سرورا بسقوط المخطط الاستعماري الفرنسي الذي كان يتبع سياسة [فرق تسد]، فكان ينشر البغضاء بين هاتين المنطقتين.. حيث يسمي إحداهما [بلاد القبائل]، والأخرى [بلاد الشاوية]

لكن سعادتي لم تكن لذلك فقط، بل كانت بعد سماعي لحديثهن باللهجة العربية الجزائرية الممتلئة بالجمال والفصاحة، على الرغم من أن لكل واحدة منهن لهجتها الأمازيغية الخاصة.. لكنهن وجدن اللغة العربية هي القاسم المشترك بينهن.. فكن يتحدثن بها بكل طلاقة.

بعدها شغلت إحداهن حاسوبها، وفتحت محرك البحث، وراحت تكتب بالعربية عن المعلومات التي تبحث عنها..

عرفت حينها أن كل الصراخ العنصري ليس سوى جعجعة من دون طحين.. وأنه ليس سوى زوبعة سرعان ما تنقشع..مثلما انقشع الغيم عن العراق وسورية وغيرها من البلاد العربية.

وعــرفت أن اللغــة العربيــة ســتعود لتحتــل مكانتهــا الرفيعة في هـذا البلـد، وأن غيرهـا من الرايـات ستسـقط مثلما سقطت راية الأكراد..

وعــرفت أن أيــام مولــود قاســم، وعثمــان ســعدي وغيرهمــا من الــذين لم تحجبهم هــويتهم الأمازيغيــة عن عشقهم للعربية وهيامهم بها ودعوتهم لها.. ستعود قريبـا.. وقريبا جدا.

يـا دعـاة الأمازيغيـة والعربيـة والكرديـة والفارسـية والطورانية.. اسمعوا مني هـذه الحكايـة، فلعلهـا تنفعكم.. فهي ليســت أســطورة من الأســاطير، أو خرافـــة من الخرفات.. وإنما هي عن رجل حكيم استطاع بتخلصـه من قوميته ونسبه الطيـني أن يحظى بأشـرف قوميـة ونسـب عرفه التاريخ..

إنها عن حكيم الحكماء [سلمان المحمدي] الذي كـان فارسيا.. لكن ذوبانه في رسول الله ﷺ جعلـه من آل بيت النبوة، وحظي بذلك الوسام الشـريف الـذي ردده التـاريخ في كل أجياله: (سلمان منا آل البيت)

والقصــة الــتي جعلت ســلمان يــرقى هــذا المــرتقى الصعب هي أنـه كـان جالسـا بين بعض القومـيين، فـرآهم يتفاخرون فيما بينهم، فبعضهم يذكر أنـه من نسـل ملـوك الغسانة، وبعضهم يرفع نسبه إلى الفراعنـة، وآخـر يرفعـه إلى الكاهنة.. فعجب لهؤلاء القوم كيف ينشـغلون بـالرمم البالية، وأمامهم الشمس التي لا تنطفئ.. والنـور الـذي لا يخفت.. والسراح المنير الذي لا ينتهي وقوده..

فلذلك مـا إن سـألوه عن قوميتـه حـتى أجـابهم بكـل روحانيــة: أبي الإســلام.. ومحمــد.. وكفى.. ثم راح ينشــد بصوته العذب المختلط بدموعه:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

كان يمكنه أن يذكر حضارة فارس، وعدل أنوشروان، ونبـوءة زرادشـت، وحكمـاء الفـرس وأدبـاءهم.. لكنـه لم

يفعـل.. لأنـه ذاب في النبـوة، وفـني فيهـا، فلم يعـد يـرى سواها..

نعم قالبه الطيني قـدم من فـارس.. ذلـك في ولادتـه الأولى.. لكنه في ولادته الملكوتيـة صـار ابن محمـد، وأخـا محمد، وصاحب محمد، وكل شيء عنده يلهج بمحمد..

لقد صار روحانيا من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه.. وتخلص من طينـه.. ولـذلك لم تعـد لـه نسـبة إلى عـالم الطين.. بل بقيت نسبته الوحيدة لمحمد وآل محمد.

فانظروا ـ إخواني الأمازيغ والعرب والكرد والفـرس ـ إلى هـذه الهمـة العليـة، وحطمـوا قـوالب الطين وأوثانـه، وتعلقـوا بالنسـب الأبـدي الروحـاني النـوراني، لتشـهدوا الحقيقة من عين الحقيقة، وتـذوقوا المعـارف من سـاقي المعارف.

خذوا العبرة من أوربة الأمازيغية

يا دعاة الأمازيغية في الجزائر خصوصا، والشمال الإفريقي عموما.. خذوا العبرة من قبيلة [أوربة] الأمازيغية، تلك القبيلة التي كان يحكمها في القرون الأولى رجل منكم اسمه إسحاق بن محمد بن عبد الحميد.. لكنه بمجرد أن هرب إليه المولى إدريس الأكبر حفيد بيت النبوة حتى راح يسلم إليه مقاليد الحكم.

قال له حينها المولى إدريس: أنا لم أقصدك لأحكم أرضك، وإنما قصدتك لتحميني من بطش بني عمومتي من العباسيين الذين شردونا وقتلونا.

ابتسم المولى إسحاق، وقال له: وهل يمكن لمثلي أن يحكم مثلك؟.. نعم أنا أمازيغي.. ولا أنكر أن لي لغة أخرى غير العربية.. ولكن أصلي ولغتي وكل كياني ملك للنبوة، ولبيت النبوة..

وهكذا تحول المولى إدريس من طريد إلى أمير.. وما أسرع ما تسارعت القبائل الأمازيغية إليه.. وما أسرع ما أسلم الكثير منها على يديه.. وما أسرع ما راحت روحه وأنواره تنتشر بينهم.

حينها سمع بنو عمومته من العباسيين بذلك السؤدد الذي ناله في أرض الغربة.. فراحوا يرسلون من يدس له السم.. فقتلوه.. ومضى شهيدا.

كان في إمكان أي رجل أمازيغي حينها أن يتولى الحكم في الدولة الإدريسية، وهي في بداية نشوئها.. لكنهم رفضوا جميعا.. وانتظروا إلى أن يكبر إدريس الأصغر.. ليصبح وارثا لأبيه.. وحاكما عليهم مثلما كان

والده..

وهكــــذا أصـــبحت الدولـــة الإدريســـية ملاذا لكــــل المطاردين من آل بيت النبوة وغيرهم.. بل أصبحت منارة علم وحضارة، لا يزال تأثيرها إلى اليوم.

وكل ذلك بسبب قبيلـة لم تنظـر في نسـبها الطيـني، ولم تتعصب له.. بل راحت تبحث عن نسبها الروحي، وكل من يرتبط به..

فخـذوا العـبرة منهـا إن كنتم حقـا تفخـرون بآبـائكم وأجــــدادكم.. فهــــؤلاء أولى من يوغرطـــة وماسينيســـا والكاهنة.

خذوا العبرة من الأوس والخزرج

يـا دعـاة الأمازيغيـة والعربيـة والكرديـة والفارسـية والطورانية.. اسمعوا مني هـذا الخـبر، فهـو أنفـع لكم من كل الأخبار العاجلة والآجلة..

لقد ورد في السيرة المطهرة للنبي الذي تؤمنـون بـه جميعـا، وتسـلمون لـه جميعـا أنـه عنـدما دخـل المدينـة المنورة وجـد فيهـا شـعبين يتصـارعان بسـبب حـرص كـل واحد منهما على إثبات هويته، ومحـو هويـة الآخـر.. وكـان لكـل منهمـا رايـة.. وكـان لكـل منهمـا شـعراء وخطبـاء وإعلاميون ينفخون نار العداوة بينهما.

إنهم لا يختلفون عنكم الآن كثيرا.. ففيكم أيضـا كتـاب وشـعراء وخطبـاء وإعلاميـون وبـاحثون ينفخـون فيكم مـا يسمونه أمجاد الأجداد، وإحيـاء الهويـة، والتمـيز العنصـري عن الآخر، وملكية الأرض..

فلذلك لكم أن تنظروا ما فعل رسول اللــه ﷺ بهـذين الشعبين لتعتبروا بهما، فتستنوا بسنته فيهما..

كان في إمكـان رسـول اللـه ﷺ حينهـا أن ينضـم إلى الشعب القوي من ذينك الشعبين، ويخوض معه المعركـة، لينتصر على الشعب الآخر، لكنه لم يفعل.. بـل راح يمـزج بين الشـعبين.. وراح أكـثر من ذلـك يمـزج بينهمـا وبين الشعب الجديد الذي حل بينهما.. ليمحو كل الفوارق الـتي أحدثتها الأنانية والعصبية والأهـواء، ويحـل رابطـة الإيمـان بدل رابطة النسب.. ورابطة الأخـوة في اللـه وفي الـدين بدل رابطة الأخوة في القبيلة والأرض.

لكن اليهود الـذي تعـودوا على إثـارة الفتن والنعـرات

راحوا يستعملون كل الوسائل لقطع تلك الأواصر التي بناها الإيمان..

وقد انتصروا في يوم من الأيام، فقد روي أن شاس بن قيس، وهو شيخ يهودي، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لتآلفهم وأخوتهم، مر على جماعة من الأوس والخزرج فآلمه اجتماعهم، فراح يسرد لهم أحداث التاريخ، ويقص عليهم قصص الصراع التي حصلت بينهم، وكيف قتل بعضهم بعضا، وانتهك بعضهم عرض بعض..

لقد فعل مثلما يفعله الآن بينكم حين يقلب أوراق التاريخ والجغرافيا لينشر العداوة في صدوركم.

حينها، استطاع ذلك اليهودي أن يشعل القلوب بالأحقاد، فليس هناك شيء يثير الأحقاد مثل التاريخ صادقه وكاذبه..

وقد تجلى ذلك الحقد في تحول حديث الأوس والخزرج من الحديث عن الله ورسوله إلى الحديث عن المثالب والأمجاد..

وتحول حديثهم من الرؤية الاستشرافية المستقبلية لإحياء الدين ونصرته، وعمارة الدنيا واستثمارها، إلى الحديث عن تاريخ الآباء والأجداد، وإحياء الهوية، وبعث الرمم البالية، والتقاليد واللهجات الفانية.

ووصل الأمر إلى درجة التقاتل، فقد قال بعضهم بعد سجال طويل في أفضلية كل فريق على الآخر: (إن شئتم والله رددناها الآن جذعة)

ثم ما لبثوا حتى نادوا: (السلاح.. السلاح.. موعدكم

الظاهرة)، وهي مكان في المدينة المنورة.. فخرجوا إليها، وانضـمت الأوس بعضـها إلى بعض، والخـزرج بعضـها إلى بعض.

فبلـغ ذلـك رسـول اللـه ﷺ فخـرج إليهم، وقـال: (يـا معشر المسلمين الله الله، أتدعون بدعوى الجاهليــة وأنـا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكـرمكم بـه، وقطع به عنكم أمر الجاهليـة، واسـتنقذكم بـه من الكفـر، وألف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا!؟)[1]

وكانت تلك الكلمة وحدها كافية لأن تطفئ كل نــيران الفتنة.. حينها عـرف الجميـع أن كـل تلـك الأحـاديث الـتي تصوروا أنها تعيد لهم هويتهم وذاتيتهم ليست سـوى حميـة جاهلية، ووسوسة شـيطانية.. فـألقوا السـلاح من أيـديهم، وبكوا وعانق الرجـال من الأوس والخـزرج بعضـهم بعضـا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ، فرسول الله ﷺ هو نسبهم وهو حياتهم ومماتهم وحقيقتهم وهويتهم..

حينهـا نـزل التحـذير الإلهي يخـاطب الأجيـال جميعـا، يدعوها للاعتبار بالأوس والخزرج حتى لا يستطيع سايكس ولا بيكـو أن يفـرق صـفهم، ويقطـع أرضـهم، قـال تعـالى: ﴿يَاأَيُّهَــا الَّذِينَ آمَنُــوا إِنْ تُطِيعُــوا فَرِيقًــا مِنَ الَّذِينَ أُوتُــوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمــران: 100]، فقد اعتبر الله تعالى الاستماع إلى المفرقين والعنصـريين كفرانا بالله وبنعمه.

ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَـاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُــولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِــمْ بِاللَّهِ فَقَــدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 101]، فمن كان سامعا لكتاب الله متدبرا معانيـه، يعـرف رسـول اللـه ﷺ،

---

[1] رواه ابن هشام في السيرة النبوية، والطبري والبغوي.

ويوقن به، فإنه يستحيل عليه أن يقع في ذلك الفخ.

وقد عقب على ذلك كله بوصية جامعة نص عليها قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]

لكن هؤلاء العنصريين أبوا إلا أن يردوا على الله قوله.. فنسخوا قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ بقوله: (ولا تموتن إلا وأنتم عرب أو أكراد أو أمازيغ)

خذو العبرة من مسيحيي المشرق

من العجائب التي أفرزها هذا الواقـع المملـوء بـالفتن أن نطلب من المسلمين الاقتداء بالمسيحيين، ولكن ليس لنا إلا ذلك.. والقرآن الكـريم دعانـا إلى التعامـل بالعدالـة والحياد التام، وأن نعطي كل شيء حقه.

ولهذا فإننا إذا قارنا بين الموقـف الأمـازيغي المعـادي للعربيــة، وبين موقــف مســيحيي المشــرق نجــد البــون الشاســع، فالأقبــاط المســيحيون الــذين دخــل الإســلام أرضــهم، وهم يتكلمــون بالقبطيــة، مــا أســرع مــا تركــوا قبطيتهم، وراحــوا يتعلمــون العربيــة، ويتحــدثون بهــا في حياتهم العادية، ويكتبون بها الكتب والمؤلفات الـتي تنصـر دينهم، بل وترد على الإسلام نفسه.. ولم يـتركوا للقبطيـة من مجـــال إلا المجـــال الـــديني المحض المتمثـــل في الطقوس التي يؤدونها بها.

وهكــذا إذا ذهبنــا إلى مســيحيي لبنــان وفلســطين وســورية والعــراق،حيث نجــد عشــق العربيــة متغلغلا في جــذورهم مــع كــون الكثــير منهم ليســوا عربيــا، وكــونهم يعرفـــون لغـــات أخـــرى، ويجيـــدونها، لكنهم يحصـــرون استعمالهم لهـا في المجـال الـديني المحض، أمـا الحيـاة، فهم يتحدثون فيها بالعربية، ويعربون عن مدى حبهم لها.

والأمثلة على ذلك كثيرة جدا.. لكن أجملهـا وأشـرفها أولئك الآباء اليسـوعيون الـذين خـدموا العربيـة ومعاجمهـا بما لم يخدمها به العرب أنفسهم.

ومنهم تلـك الأسـرة الطيبـة أسـرة ناصـيف اليـازجي، وهي أسرة مسيحية، كلدانية، وأستاذتها رهبان مارونيون..

ومع ذلك كانوا عاشقين للعربية، حتى أنهم كانوا يحفظون القرآن الكريم ونهج البلاغة لأجلها.. وقد روي من شدة حرص ناصيف على أصول اللغة العربية، أنه كان لا يتحدث إلى أبنائه إلا بالفصحى.. وذات يوم طلب من ابنته الصغيرة وردة (التي أصبحت فيما بعد أديبة معروفة) أن تناوله قنينة ماء ليشرب. وناولته إياها وهي تقول: تفضل يا أبي هذه هي القنينة (بفتح) القاف، فقال لها بغضب: اكسريها (وهو يقصد كسر القاف) فما كان منها إلا أن ألقت بالقنينة على الأرض وحطمتها.. حينها صفق اليازجي بيديه حسرة وأسفا وقال: هذا ما جنته اللغة علي. رحمك الله يا أبا العلاء المعري!

هذا نموذج واحد.. والنماذج أكثر من أن تحصى وحسنها منها الدور الذي قام به الأدباء الكبار من أمثال جبران خليل جبران، وإيليا أبي ماضي، وميخائيل نعيمة، غيرهم كثير في خدمة الأدب العربي، وتطويع العربية للواقع الجديد.

وأختم هذه النماذج المليئة بالعبر بكلمة للمؤرخ المعاصر المعروف د. نقولا زيادة في مجلة العربي الكويتية أيلول 2004، فقد قال: (علينا أن نتقن لغتنا، وإتقان هذه اللغة يقضي بأن يُقْبِل كل واحد منا على القرآن الكريم فيفهمَه فهماً صحيحاً. أما المسلم فله على ذلك أجره عند ربه، وأما الباقون فلهم على ذلك أجرهم عند نفوسهم وعند أبنائهم، الذين يُربُّونهم عندئذ تربية عربية خالصة)

خذوا العبرة من مصر

يـا دعـاة الأمازيغيـة في الجزائـر خصوصـا، والشـمال الإفـريقي عمومـا.. خـذوا العـبرة من مصـر، فهي مثلكم، توجد في الشمال الإفريفي، وعدد سكانها يربـو على عـدد سكانكم مجتمعين، وعندما دخل الإسلام أرضها كـان فيهـا حضارة أعظم من حضارتكم بكثير، بل إنهـا تصـنف ضـمن أكـبر الحضـارات في التـاريخ.. بـل إنهـا لا تـزال تـدرس، ويكتشف كل يوم إبداع جديد من إبداعاتها.

ولها فوق ذلك لغة عريقة.. ولها حـروف قديمـة قـدم التاريخ.. ولها شعب لا يمكن التهوين من قدراتـه العقليـة، ولا الجسدية، ولا من إرادته وعزيمته..

ولكنها مع ذلك كلـه، ومـع كـون الفـاتحين المسـلمين عندما دخلوا أرضها، وجدوا شعبا كثيرا، ودولة قائمة.. ومع ذلك كله لا نجد في مصر الحضارة والتـاريخ والعراقـة من ينادي باللغة القبطيـة بـديلا عن اللغـة العربيـة، أو بالهويـة القبطية باعتبارها الهوية الأم بديلا عن الهوية العربية.

بل إننا نجد شعبا يعتز بعروبته، ويهتم بعربيته، ولا يضع أي لغة أخرى بديلا عنها أو منافسا لها.. بل إنهم فوق ذلك يسمون بلادهم [جمهورية مصر العربية]

بـل إن أعلامهم وأبطـالهم ليسـوا رمسـيس الأول ولا الثاني، ولا بناة الأهرام.. وإنما هم سيدنا الحسين.. وسـتنا زينب.. والسيدة نفسية.. وسيدي أحمد البـدوي.. وهكـذا.. لا نجد فيهم ولا فرعونا واحدا.

فهل كان ذلك سببا في تأخرهم، وهم المتقـدمون في كل المجالات.. فالحضـارة الإسـلامية تزخـر بعلمـاء مصـر

وأوليائها.. كما أن التاريخ الحديث والنهضة الحديثة ممتلئـة برجـالات مصـر.. بـل إننـا نجـدهم في كـل أنحـاء العـالم، يمثلون العروبة أحسن تمثيل.. فهل كانت عـروبتهم عائقـا بينهم وبين التحضر؟

نعم ربما توجد لـديهم أزمـة اقتصـادية، وبعض الفقـر، وهذا شيء طبيعي.. فلا يوجد عندهم من الثروات ما يوجد عندكم، وإلا فإنه لو وجـد عنـدهم نصـف مـا عنـدكم لملأوا الأرض سمنا وعسلا..

فخـــذوا العـــبرة منهم، ودعـــوا عنكم اللهث وراء السـراب، فنحن نحتـاج إلى الـدعوة إلى الإيمـان والقيم والأخلاق والتحضر.. ولسنا بحاجـة لمن ينبش التـاريخ ليملأ قلوب النـاس أحقـادا.. فالحضـارة يبنيهـا الإنسـان، لا آبـاء الإنسان أو أجداده أو تاريخه أو أرضه.

خذوا العبرة من موريطانيا

يا دعاة الأمازيغية في الجزائر خصوصا، والشمال الإفريقي عموما.. خذوا العبرة من موريطانيا، تلك الواحة الجميلة في الصحراء الغربية الإفريقية.. والتي استطاعت أن تقهر الأجواء القاحلة، والموارد الشحيحة، لتؤسس لنفسها قيما رفيعة يقل نظيرها في الوطن العربي جميعا.

شرفني الله بزيارتها في إطار مؤتمر علمي أقامته قبل حوالي شهر.. وقد رأيت فيها ما ملأني بالعجب.. كانت العربية تنطلق من حناجرهم فصيحة بليغة لم أر مثلها حتى في البلاد التي تزعم أنها مراكز العروبة.

وكان الشعراء ينتشرون فيها، ويقرؤون قصائدهم العتيقة الممتلئة بالجمال، حتى يشعر المرء، وكأن أسواق الشعر قد قامت من جديد.. وعندما سألتهم عن سر كثرة الشعراء، قالوا: نحن بلاد المليون شاعر.. هكذا يطلق علينا.. فقد وضع الله فينا حب الشعر.. وحب العربية..

قلت: ولكن أصولكم إفريقية.

قالوا: نحن لا تهمنا أصولنا ولا فروعنا.. ولا حسبنا ولا نسبنا.. نحن يهمنا أننا صرنا عربا بقرآننا وديننا.. وقد ألقى الله في ألسنتنا حب العربية، كما ألقى في قلوبنا حبه وحب نبيه ﷺ.. ولذلك تجدنا نحفظ كل شيء يرتبط بالعربية ابتداء من قرآننا، وانتهاء بكل العلوم التي ترتبط به.. وذلك ما يسر على ألسنتنا أن تقول الشعر كتابة وارتجالا.

قلت: ولكن لم لا تهتمون أيضا باللغات الإفريقية؟

قالوا: أتريدنا أن نكون كبني إسرائيل الذين آتاهم الله

المن والسلوى، فراحو يطلبون الثوم والبصل؟

قلت: لكنكم يمكنكم أن تجمعوا بينهما.

قـالوا: ﴿مَـا جَعَـلَ اللَّهُ لِرَجُـلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِـهِ﴾ [الأحزاب: 4]، وما جعل الله لامرئ من لسانين في فمه.. وإن كان ولابد أن نضيف ضرة لعربيتنا الجميلة، فسنضيف لغـة من اللغـات الـتي نسـتفيد منهـا من علـوم العصـر وتقنياته ما ينفعنا.

لم يكن الشعر وحده، ولا الفصاحة وحدها هي السوق التي تميزت بها موريطانيا.. بـل كـانت تحافـظ إلى جـانب ذلـك، أو بسـبب ذلـك على كـل قيم العروبـة الأصـيلة المضـمخة بعطـر الإسـلام.. فقـد كـان الكـرم والنبـل والشهامة والرفق واللين.. وكل القيم الرفيعة تنطبـع على ملامح كل شخص موريطاني التقينا به، أو تحدثنا إليه.

وكان الجميع.. بما فيهم إخـوانهم من الأفارقـة الـذين التقينـا بهم.. يتغنـون بحب رسـول اللـه ﷺ وتعظيمـه، وتعظيم القيم الـتي جـاء بهـا من غـير أن ينطقـوا بكلمـة واحـدة عن لغـاتهم، ولا عن أصـولهم، ولا عن فـروعهم.. لأنهم توحـدوا جميعـا في رسـول اللـه ﷺ.. وفي قـرآنهم.. وفي لغتهم التي جمعهم عليها نبيهم وكتابهم.

ومن شـاء أن يجـادلني في هـذا، فليـذهب إلى نواقشوط أو غيرها من المدن الموريطانية، ليرى فيها بأم عينيه أسواق العلم والشعر والأدب الرفيع والقيم النبيلـة.. ولـيرى كيـف تكـون اللغـة وسـيلة من وسـائل التحضـر والترقي الأخلاقي.. وإن شاء أن يجري مقارنة، فيمكنه أن يقـوم بجولـة مماثلـة في بعض مـدننا الـتي راحت تطلـق الهوية العربية، وتطلـق معهـا كـل القيم النبيلـة.. وأول مـا

سيراه تلك الحانات والخمور وكل مظاهر الانحـراف الـتي تنتشر على الملأ من دون حياء ولا خجل..

من الدعاوى التي يبثها دعاة الأمازيغية لهدم اللغة العربية في الجزائر محاولتهم إبعاد العامية الجزائرية عن الفصحى، وتصويرهم لها، وكأنها لغة أخرى خلاف العربية.. وهذا وهم كبير، ومخالف للواقع، ومن السهل تفنيده.

ذلك أننا إذا استثنينا بعض المدن الكبرى التي أثر فيها الاستيطان الفرنسي نجد أن معظم المدن الجزائرية الداخلية سواء ما كان منها بالجنوب أو بالشمال، تتكلم بعامية فصيحة إلى حد كبير جدا، ولا تحوي من الكلمات الأجنبية إلا عددا محدودا، وهي مقحمة إقحاما من طرف بعض الفرنكفونيين أو المعقدين من العربية، والذي يحاولون كل حين زج كلمة فرنسية للعامية ليتخلصوا من العربية التي يتعقدون منها.

لكنا إن عدنا إلى لغة الآباء والأجداد، أو اللغة التي يتكلم بها أهل الضيعات والأرياف، أو حتى المدن التي لم تتأثر كثيرا بالاستيطان الفرنسي، بل حتى منها تلك التي تحسب ضمن الدائرة الأمازيغية [مثل مدن باتنة وخنشلة وأم البواقي]، نجد لغة عربية سليمة تماما، بنفس مخارجها، ونفس معانيها.

نعم نجدها متأثرة من حيث التصريف مثلها مثل اللهجات العامية في سائر الدول العربية، لكن ذلك لا يؤثر فيها، لأن الذي يتحدث بتلك العامية يسهل عليه أن يعرف العربية الفصحى، ويتكلم بها بسهولة.

ولعل أدل دليل على كون الشعب الجزائري يتحدث لغة عربية مائة بالمائة، أن عوامه وأمييه كبارهم

وصـغارهم يفهمـون الخطب والـدروس الـتي تلقى في المسـاجد عـادة بالعربيـة الفصـحى.. بـل يفهمـون المسلسـلات العربيـة الفصـيحة المدبلجـة، بـل يفهمـون اللهجة المصرية والسورية واللبنانية.. بل حـتى الخليجيـة.. ويقلـدونها بسـهولة.. ولـولا تلـك الخلفيـة اللغويـة الـتي تجمعهم بتلك اللهجات لما استطاعوا فهم ذلك.

ولهذا فإن تلك الأحكام الجزافية التي يحكم بهـا بعض المشـارقة على اللهجـة الجزائريـة، وكونهـا مختلطـة بالفرنسـية ناتجـة من عـدم مخالطـة للـداخل الجزائـري، فـأكثرهم يكتفي بالمطـار والفنـادق في المـدن الكـبرى، والتي يسيطر عليهـا عـادة أصـحاب التوجـه الفرنكفـوني، الذين يكرهون العربيـة.. ويحـاولون اسـتبدالها بالفرنسـية، بل بأي لغة أخرى.. ولهـذا نـراهم يناصـرون الأمازيغيـة، لا حبا فيها، وإنما بغضا للعربية.

وقد أجريت الكثير من الدراسـات العلميـة الأكاديميـة حول هذا، وأثبتت النتائج التي ذكرت، ولعل ما ييسـر على القـارئ التعـرف على ذلـك، هـو البحث عن لغـة الأمثـال والقصص الشعبية الجزائرية، والتي لا تختلف عن مثيلاتهـا المشرقية.

ومن شـاء أن يتأكـد من هـذا الكلام، فليـذهب إلى المحال العامة في المدن والقرى الداخليـة الـتي لم تتـأثر بالدعوة الأمازيغية أو الفرنكفونية، وسيسمع عربية جميلـة فصيحة من مخارجها الصحيحة..

لم الحقد على العربية؟

من عجائب التناقضات التي يقع فيها دعـاة الأمازيغيـة ذلك الحقد الذي تفرزه نفوسهم على اللغة العربية، وعلى العرب، في نفس الوقت الذي يكادون يـذوبون فيـه تتيمـا وعشقا للغة الفرنسية، ولأصحابها الفرنسيين؟

وهــذا يــدل على أن هــؤلاء الــدعاة ــ شــعروا أو لم يشعروا ــ جـزء من مخطـط اسـتعماري خطـير، أو أدوات للحــرب الناعمــة المقبلــة الــتي يزمــع الاســتكبار العــالمي تحضير الأرضية لها في الجزائر.

وإلا فإننا إذا عدنا إلى أسلاف الأمازيغ أنفسهم نجدهم جميعا من أبناء الطرق الصـوفية، بـل كـانوا من مشـايخها الكبار.. والصوفية أبعد الناس عن العرقية والطائفية..

فالشـيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري هـو مؤسـس أكبر طريقة صوفية جزائرية [الطريقة الرحمانيـة]، والـتي تنتشــر زواياهــا في كــل المنــاطق الجزائريــة، وخاصــة الأمازيغية منها، ومع كونهـا تـدرس كـل العلـوم إلا أننـا لم نســمع أنهــا دعت إلى تــدريس الأمازيغيــة، ولا دعت إلى العرق الأمازيغي أصلا.. بل إنها تفخـر بعروبتهـا، بـل تثبتهـا من خلال وثائقها الكثيرة.

وهكذا نجد أن أكـبر حركـة مقاومـة للاسـتعمار كـانت على يد الشـيخ الحـداد، وهـو شـيخ صـوفي، من المنطقـة الأمازيغية، واستطاع أن يحشد الحشود الكثيرة من جميــع جهات الجزائر لمواجهة الاستعمار الفرنســي، ولم يتحــدث أبدا بلغة عرقية ولا طائفية.

وهكذا نجد مفجري ثورة نوفمبر، والـذين كـان الكثـير

منهم يتقن الأمازيغية مثل مصطفى بن بولعيد، ومـع ذلـك لم نسمع هذه الأحقاد الموجهـة للعربيـة، ولا للعـرب.. بـل كـانوا يعتـبرون أنفسـهم عربـا لأنهم يعرفـون العربيـة، وينطقون بها..

بل إننا نجـد في نص أول نـداء وجهتـه الكتابـة العامـة لجبهـة التحريـر الوطـني إلى الشـعب الجزائـري في أول نوفمبر 1954 هذا الهدف (تحقيـق وحـدة شـمال إفريقيـا في داخل إطارها الطبيعي العربي والإسـلامي).. ولم نجـد فيه كلمة واحدة عن الأمازيغ أو الأمازيغية.

بل إننا إذا عدنا إلى التـاريخ نجـد كبـار العلمـاء الـذين أنجبتهم المناطق الأمازيغيـة يحبـون العربيـة، ويقدسـونها، ويكتبون بها، ولم يشكوا أبدا من ظلم أهلها لهم..

وحسبنا أن نذكر أن ابن معطي مؤلف أول ألفيـة في النحـو العـربي كـان من زواوة، وهي من المنـاطق الأمازيغية.. فقد ألفها(العلامة شـيخ النحـو زين الـدين أبـو الحسـين يحـيى بن عبـد المعطي بن عبـد النـور الـزواوي النحوي)، وهو كما يـذكر مـترجموه (جزائـري الأصـل، من (زواوة)؛ وهي قبيلة كبيرة ببجاية).. وعنـدما يتحـدثون عن كتبـه يـذكرون أنهـا [الـدرة الألفيـة في علم العربيـة].. و[الفصـول في النحـو].. و[المثلث في اللغـة].. و[العقـود والقوانين في النحو].. و[الفصول الخمسـون في النحـو].. وغيرها.. وكلها في خدمة العربية.. بل لا يوجد كتـاب منهـا عن الأمازيغية.

بل إننا لا نجد لهذه الدعوة ظهـورا إلا بعـد الاسـتعمار الفرنسي الذي استعمل سياسة [فـرق تسـد] ليتمكن من تفيـذ مشـاريعه.. وراح دعـاة الأمازيغيـة يتبعـون صـيحته، وينسون دينهم ونبيهم الذي حذرهم من العصبية.. وينسون

المســتعمر الــذي اســتولى على خــيراتهم.. بــل راحــوا يسبحون بحمده، ويرطنـون بلغتـه في نفس الـوقت الـذي يحتقرون فيه لغتهم العربية لغـة كتـابهم المقـدس.. ولغـة نبيهم.. ولغة أجدادهم.. ولغة حضارتهم.

هل الدعوة إلى العربية عنصرية؟

ما كنت أتصور أبدا أنني سأعيش إلى اليوم الذي تصبح فيه الدعوة إلى البديهيات دعوة مستغربة، بل مستهجنة، بل تتلقى بكل صنوف الرد والبذاءة.

ذلك أنني لم أدعو من خلال كل المنشورات السابقة لا إلى عبس ولا إلى ذبيان.. ولا إلى مضر.. ولا إلى ربيعة.. بل دعوت إلى شيء واحد هو [اللغة العربية]، بمحبتها وإحيائها وتعلمها والتعامل بها في جميع الشؤون، باعتبارها هدية الله لنا، وفضله علينا، حتى نفهم كتابه من غير أي ترجمة تشوه معانيه أو تقزمها.. وحتى نعيش بلاغته كما عاشها من عايشه، فنرى معجزته الحسية ماثلة أمامنا في مفرداته وتراكيبه.

لكن الآخرين تصوروا أننا بدعوتنا إلى العربية نحارب دعوتهم للغتهم التي لا نستطيع مهما توفر لها من عناصر الإبداع والقوة أن تنافس العربية، بل أن توضع معها في محل واحد.. فهي لا تزال لهجات مفرقة مشتتة، حالها كحال اللهجات العربية قبل الإسلام.. بل إنني سمعت من بعض دعاة الأمازيغية أنفسهم أنه لم يفهم إلا 20 بالمائة من أول بيان رسمي باللغة الأمازيغية، ذلك أنه كتب بلهجة تخالف لهجته..

أهذه هي اللغة التي تريدون أن تستبدلوا بها اللغة العربية.. لغتنا الأصلية والأم والرسمية والدينية والحياتية وكل شيء.. هكذا سمعناها من آبائنا وأجدادنا لولا أن جاء ذلك المستعمر البغيض، والذي لم يستطع أن يتلاعب بدين الناس، فراح يتلاعب بلغتهم، وبصناعة ضرائر لها، يحتقرونها، ويشمئزون منها، بل يستعملون كل الوسائل

إلى الإساءة إليها.

مع أنهم يصرحون أنها لغة القرآن الكريم.. ويصرحون مع ذلك أنه لولا القرآن لما أعاروها أي اهتمام؟

يا سبحان الله.. ما هذه الكلمة العظيمة؟.. وما هذا التفكير المنطقي العجيب؟

إذا كان الله اختارها لتحمل آخر رسالة له إلى عباده.. وهو أعلم حيث يجعل رسالته.. وأعلم باللغة التي تتناسب مع المعاني السامية المقدسة التي يريد تبليغها لعباده.. أفنحتقرها نحن، بل ونضعها مع سائر اللغات في صف واحد؟

إن الذي يفكر بهذه الطريقة لا يضع للقرآن الكريم، ولا لدينه أي قيمة.. وإلا فإنه لو كان صاحب منطق، فإن أول قاعدة يتأسس عليها اختيار الله للعربية لتبليغ دينه.. أن نقول: إذا كان الله اختارها لديننا، أفلا نختارها لدنيانا.. وإذا وسعت العربية كل عوالم الملكوت.. أفلا يمكنها أن تسع عوالم الملك.. وإذا عبر بها عن حقائق الوجود الكبرى.. أفلا يعبر بها عن حقائق الكون الصغرى؟

من الأهـداف الـتي يطرحهـا دعـاة الأمازيغيـة لإعـادة إحيائهـا وتفعيلهـا في الواقـع هـو كونهـا ــ كمـا عـبر بعض الأصـدقاء الطيـبين ــ وسـيلة لتصـحيح التـاريخ.. والعـودة للذات.. وعنصرا للتميز.. ذلك التمـيز الـذي ينمي الشـعور بالمنافسة الشريفة لباقي الأمم.

وخطورة هـذا الطـرح تكمن في نـواح متعـددة، أولهـا دعوة صاحبه إلى العودة إلى التاريخ للبحث في الأصـول.. ثم البحث بعــد ذلــك عن الســكان الحقيقــيين لمنطقــة الشـمال الإفـريقي.. وبعـد ذلـك تميـيز الأصـيل منهم من الـدخيل.. وبعـد التميـيز لسـت أدري مـا سيحصـل.. هـل سـيطرد العــرب الوافــدون على فــترات التــاريخ، وهم كثيرون جدا ابتداء من العرب الفاتحين وانتهـاء بـالهجرات الهلالية والسليمية وغيرها من القبائـل العربيـة؟.. أم أنهم يصبحون مواطنين درجة ثانية؟.. أم أنـه سيحصـل لهم مـا حصل للفلسـطيين من الشـتات، لأن الـدعوة الأمازيغيـة ـ بهذا الاعتبار ـ ليست سوى تقليد حرفي للدعوة الصهيونية التي نبشـت بطـون التـاريخ، لتعـبر من جـذورها التاريخيـة للواقع، فتغيره، كما اشتهى لها ظلمها.

والخطور الثانية لهذا الطرح هي مـا أطلـق عليـه هـذا الصديق العزيز وصف [التميز]، وهـذا غـريب، فهـل يكـون التمـيز باللغـة والعـرق، أم يكـون التمـيز بـالقيم الطيبـة، والأخلاق الراقية.. أو بـالتقوى كمـا عـبر القـرآن الكـريم.. وإن كان يقصد هـذا الصـديق تمـيز العـرق الأمـازيغي عن غيره من الأعراق، فإن هذا لا يختلف كثيرا عن دعوة هتلر لتميز العرق الآري، وتفضـيله على سـائر الأعـراق.. أو مـا

ينادي به الدارييniون الاجتماعيون من تميز أصحاب اللون الأبيض عن باقي الألوان.. ولذلك يحتقرون سائر الألوان، ويستعمرونها، ويستحلونها، بل هناك من يدعو إلى إبادتها، باعتبارها أعراقا دنيا لم تتطور بعد.

أريد من هذا الصديق وغيره أن يراجعوا أنفسهم، ويراجعوا التاريخ، ويراجعوا قبل ذلك المصادر المقدسة إسلامية كانت أو غير إسلامية.. ليكتشفوا أن هذا الطرح ليس سوى تكرير وإعادة طرح لأول مقولة في التمييز العنصري عبر عنها إبليس بقوله: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، وهؤلاء يقولون: (نحن خير منهم خلقتنا أمازيغ وخلقتهم عربا)

اللغات وسائل.. لا مقاصد

من البديهيات المعروفة للجميع أن كل ما ندرسه من علوم ينقسم إلى قسمين: إما علوم ذاتية مقصودة لذاتها، أو علوم آلة، وهي المقصودة لغيرها..

ومن المعروف أيضا أن المقاصد هي التي تحدد الوسائل والآلات.. فمن كان مقصده فهم القرآن الكريم مثلا يحتاج إلى النحو لمعرفة تراكيبه.. والبلاغة لمعرفة أسرار التعبير فيه.. والغريب للتعرف على الكلمات الغريبة ودلالاتها.. وهكذا.

وبناء على هذا، فإن من المتفق عليه أن اللغات وسائل وآلات وليست مقصودة لذاتها، فاللغة بذاتها لا تحمل أي دلالة فكرية ولا علمية ولا عملية، وإنما تستعمل للتعبير عن ذلك كله.

ولذلك فإن الداعية لتعليم أي لغة يحتاج إلى أن يعرض أولا أهدافه ومقاصده من ذلك التعليم.. أو بعبارة أخرى يحدد الفوائد التي ينالها ذلك المتعلم، ليرى مدى حاجته ووجهتها، ثم يختار اللغة التي تتناسب مع مقصده..

فالإنجليزي مثلا عند دعوته لتعلم لغته يذكر أنها لغة العلم الحديث والتقنيات والتواصل العالمي.. ولا أحد يجادله في ذلك.. والفرنسي يذكر أن لغته لغة للتواصل مع دول كثيرة بالإضافة للتراث الأدبي والعلمي المكتوب بها.. وهكذا.

لكن الإشكال في الأمازيغي الذي يدعو إلى تعلم لغته، بل إلى فرضها على الناطق بها وغير الناطق بها.. ما هي حجته في ذلك؟.. هل هناك كتب علمية لا توجد إلا

باللغة الأمازيغية.. ولـذلك نحتـاج إلى الاجتهـاد في تعلمهـا حتى نتقن تلك العلوم.. أو أن هناك تراثـا أدبيـا أو عرفانيـا أو فلسفيا مكتوبا بهـا.. بحيث لا يمكننـا الاسـتفاده منـه إلا عـبر تعلم هـذه اللغـة؟.. أو أننـا لا يمكننـا التواصـل مـع الأمازيغ إلا بواسطة هذه اللغة؟

وكل ذلك غير موجود.. حتى التواصل مع من ينطقون بالأمازيغيـــة، ليس مـــبررا، لأن الأمـــازيغ كلهم يعرفـــون العربيـة، ويتقنونهـا، بـل فيهم من يتقنهـا أكـثر من العـرب أنفسهم.

فلذلك ما الحاجة في أن يمضـي أولادنـا أوقاتـا مهمـة من أعمارهم من أجل لغـة لا يسـتفيدون منهـا لا علمـا ولا تواصـلا ولا أي شـيء.. أليس من الأجـدى بـدل ذلـك أن يدرســوا مـــا يفيـــدهم.. فنحن نبحث عن الخـــروج عن التخلف.. لا الغرق فيه أو تنميته؟

من الـدعاوى الـتي يطرحهـا دعـاة الأمازيغيـة، والـتي يحاولون بها الغض من العربية أو من العـرب قـولهم: (لـو أن النبي كان من الأمازيغ.. والقرآن نـزل بالأمازيغيـة لمـا آمن بـه العـرب)، وأظن أنهـا مقتبسـة من كلمـة للمفكـر الحداثي الأمازيغي محمد أركون.. لسـت أدري أين قرأتهـا عنه.

وهذه دعـوى عريضـة، وخطـيرة، ولا يمكن بحـال من الأحوال التحقق منها في الواقع، لأن محمـدا ﷺ هـو خـاتم الرسـل، والقـرآن خـاتم الكتب.. ولـذلك تصـبح الـدعوى ملغاة مثلها مثل كل دعوى لا بينة عليها، ولا يمكن التحقق منها.

لكن المشكلة ليست في الـدعوى، وإنمـا فيمـا ينبـني عليها، أو فيما يقرأ بين سطورها.. فهذا الـذي طـرح مثـل هذه الأفكـار، يريـد أن يقـول للأمـازيغ: مـا دام العـرب لم يؤمنوا بنبيكم المفـترض.. فلم تكلفـون أنفسـكم بالإيمـان بنـبيهم.. ومـا دامـوا لم يقدسـوا كتـابكم المفـترض، فلم تقدسون كتابهم؟

هذا ليس تحليلا أفترضه.. بل هو حقيقة ما تفرزه تلك الشعارات التي توجه للعامة، ليقرؤوهـا بحسـب أمـزجتهم وأهوائهم.. والذين تحول الـدين عنـدهم من دين إلهي إلى دين قومي.. وأصبح تعصبهم لمـا يطلقـون عليـه [الهويـة] أكثر من تعصبهم لكتابهم ونبيهم.. وكيـف يتعصـبون لهمـا، وهم يتحسـرون على أنهمـا لم يكونـا من الأمازيغيـة أو

بالأمازيغيــــة.. ويـــرددون من حيث لا يشـــعرون مقولـــة المشركين: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31]، والتي رد عليها الله تعالى بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِـمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَـمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَـتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَـوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـاتٍ لِيَتَّخِـذَ بَعْضُـهُمْ بَعْضًـا سُـخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْـرٌ مِمَّا يَجْمَعُـونَ ﴾ [الزخرف: 32]

والسؤال الذي يطرح نفسه بعد هذا هو: فلنفـرض أن العرب كما ذكرتم كان لهم من الكبر ما يحـول بينهم وبين الدين الأمازيغي المفترض.. فما يؤذيكم ذلك؟.. وهـل أنتم مكلفون بدعوتهم للإيمان، أم مكلفـون بمحاسـبتهم؟.. ألم يقـل اللـه لنبيـه ﷺ: ﴿وَمَـا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيـلٍ﴾ [الأنعـام: 107]، وقال له: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22) ﴾ [الغاشية: 21، 22]؟

ثم لماذا تعتبرون العرب جميعا أمثـال أبي جهـل وأبي لهب.. ألم يكن في العرب محمد رسول الله ﷺ خير خلق اللـه؟.. ألم يكن منهم آل بيتـه الأطهـار؟.. ألم يكن منهم أولئك الصحابة المنتجبون، والتابعون الطيبون الذين ضحوا بأنفسهم في سـبيل إعلاء كلمـة اللـه، ونشـر دينهم؟.. ألم يكن فيهم الأولياء والعلماء والصالحون؟

أليس العـرب مثلهم مثـل غـيرهم من الأجنـاس فيهم المصلح والمفسد، والتقي والفـاجر.. فلم تحكمـون عليهم حكما واحدا، وتنزلونهم منزلة واحدة.. هل هذا ما يقتضـيه العقل والمنطق؟.. أم ما تقتضيه الشريعة والحقيقة؟

عـودوا إلى وعيكم المغيب.. وتعـاملوا مـع الحقـائق.. وسلموا لله اختياره.. فالله هو الـذي اختـار العربيـة، وهـو ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَـا كَـانَ لَهُمُ الْخِيَـرَةُ ﴾ [القصـص:

[68

أمـا دعـواكم تلـك، فيمكن لإبليس نفسـه أن يـدعيها، فيقول: (أنا لم أسجد لآدم.. لأنه لو أمـر بالسـجود لي لمـا سجد)

العرب والعربية والعروبة والأعراب

هذه مصطلحات أربع لكل واحد منها دلالته الخاصة، والفهم السليم لها هو الذي يحمينا من بعض المواقف السلبية التي قد يدعو إليها ما نراه من تخلف واستبداد وظلم وعنصرية.

أما المصطلح الأول، وهو [العرب]، فيراد به جنس من الأجناس البشرية، لا يختلف عنهم في توفره على الطاقات التي تؤهله لأداء دوره في الخلافة وعمارة الأرض، لا ينقص عنهم في ذلك، ولا يزيد.. وهو منتشر الآن في الأرض، بين المناطق التي لا تزال تنطق العربية، كما هو بين غيرها في المناطق التي تنطق بلهجات أو لغات أخرى.. فلذلك لا يصح أن يشتم هذه الشعب باعتبار ذاته، فمنه أكرم خلق الله، وأعظم أوليائه، وفيه كذلك المنحرفون والأشقياء والظلمة.. ولذلك لا يصح التعميم.. أو الشتم بالوصف.

أما المصلطح الثاني، وهو [العربية]، فهو يدل على أشرف اللغات وأحكمها وأدقها وأجملها، فيكفي العربية شرفا أن تكون لغة القرآن، ولغة نبي الله وأولياء الله، الذين لا يفهم كلامهم إلا بعد فهمها.. ومن العجب أن يرغب من أجرى الله لسانه بها إلى غيرها، مع أن هناك من ينفق الأموال الكثيرة والأوقات الطويلة حتى تكون له بعض المشاركة فيها، أو الفهم لها.

أما المصطلح الثالث، وهو [العروبة]، فيراد به قيم شريفة كانت تنتشر بين العرب كما تنتشر بين غيرهم من سكان البوادي من أمثال النخوة والشهامة والنبل وغيرها.. ولا يصح أن تشتم هذه المعاني.. إلا إذا أريد بها

القومية العربية التي هي دعـوى منتنـة مثلهـا مثـل دعـوى الكردية والأمازيغيـة والطورانيـة والفارسـية.. وأي قوميـة أخرى.

أما المصطلح الرابع، وهو [الأعراب]، وهـو موضـع ذم القرآن الكريم، فهو ليس خاصا بالجنس العربي، وإنما هـو عام لكل من اتصف بصـفات الجفـاوة والغلظـة والقسـوة والفهم الحرفي للدين، وعـدم التعمـق في معانيـه وقيمـه سواء كان عربيا أو كرديا أو فارسيا أو أمازيغيا أو أيا كان..

أساس المشكلة بيننا وبين دعاة الأمازيغية

أنا شخصيا ليس لـدي مشـكلة مـع أي شـخص يـزعم لنفسه أنه أمازيغي، إما باعتبار اللغـة الـتي ينطـق بهـا، أو باعتبار النسب الذي يدعيـه.. حـتى لـو ذكـر لي أنـه حفيـد يوغرطة المباشر، أو أن أباه ماسينسا، وجدته الكاهنة.. لم أنكر عليـه.. ولم أطالبـه بـأي وثيقـة تثبت ذلـك.. فالنـاس مصدقون في أنسابهم.. وأنا أنظر إلى الإنسان كإنسان، لا يهمني أصله ولا فرعه، ولا جده، ولا خاله..

لكني في نفس الوقت أطالبه بأن يقف مع غــيره من الجزائريين أو المغاربة أو التوانسة بمثل مـا يقـف بـه مـع نفسه.. فلماذا ينكر عليهم إذا ادعوا نسبهم إلى بــني هلال أو ســليم أو ربــاح أو قبائــل اليمن.. أو ذكــروا أنهم من السادة الأشراف الـذين فـروا من المشـرق إلى المغـرب هربا بأنفسهم من بطش الحكام والظلمة.. لمـاذا يلـزمهم بأن يكونوا حفدة لأجـداده، ونسـلا لآبائـه؟.. وهـل النسـب يفرض فرضا؟

هذه هي النقطة الفارقة الأولى.. وهي تجعل الأمـازيغ ظالمين لا مظلومين.. فهم عنـدما يـذكرون أن أصـل كـل الجزائـر أمـازيغ يخطئـون في ذلـك خطـأ تاريخيـا كبـيرا، ويتـدخلون في تفاصـيل أنسـاب النـاس من غـير بحث ولا علم.. فمن أين لهم بإثبات هذه الـدعوى العريضـة؟.. ومـا ضرهم لو تركوا الناس، وما اشـتهوا من أنسـاب ينتسـبون إليها صادقين كانوا أو كاذبين؟

أمــا النقطــة الثانيــة.. وهي أخطــر من الأولى.. فهي دعــوتهم لمن لم يعــرف في حياتــه اللهجــة أو اللغــة

الأمازيغية بتعلمها.. وهذا استبداد عظيم.. فلماذا تفرضـون علي وعلى أولادي لغـة لا أرتضـيها، لا احتقـارا لهـا.. ولكن لاني أرى أنه لا جدوى من تعلمها.. ولا يهمني هل هي لغـة آبائي أو أجدادي أو ليســت لغتهم.. لأني لا أحب أن أعيش في جلبــاب أبي.. واللغــة يفرضــها الواقــع والحاجــة، ولا يفرضها الآباء والأجداد.

أما ادعاؤهم بـأنهم يفرضـون علي ذلـك، لأني أفـرض عليهم العربية، فأنا أحلّهم منها، ولا أطالبهم بها.. لأن اللغة العربية في تصوري شرف عظيم.. ومن شاء أن لا يحمــل هذا الشرف فله ذلك.. ولهم كـذلك أن يعتـبروا الأمازيغيـة شرفا لمن يتعلمها.. ولا عليهم فيمن أراد التملص من هـذا الشرف.. فالشرف لا يفرض قهرا.

هو شرق أوسط.. وليس شرقا أوسخ

من مفـردات التنـابز بالألقـاب الـتي يسـتعملها دعـاة الأمازيغية في حق العربية، وكـل مـا يرتبـط بهـا تسـميتهم [الشرق الأوسط] بــ [الشـرق الأوسـخ] في نفس الـوقت الذي يذوبون فيه تتيما وشوقا إذا ما ذكرت أوروبا وأمريكا وغيرهـــا من دول العـــالم، متناســـين أنهم قبـــل الفتح الإسلامي كـانوا تحت سـيطرة الرومـان والونـدال.. وهمـا من الشــعوب الأوروبيــة.. وأنهم في العصــور الإســلامية أصابتهم الكثـير من الـويلات الاسـتعمارية الـتي لم يحـدث مثلها في التـاريخ من تلـك الشـعوب الـتي يمجـدونها، في نفس الــوقت الــذي يمتلئــون فيــه حقــدا على إخــوانهم المؤمنين.

وأول ما يثير الانتباه في ذلك اللقب هو عـدم اعتبـاره للأماكن المقدسة الموجـودة في ذلـك الشـرق الأوسـط.. وهي أماكن كثيرة تبدأ من مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف، وتنتهي بغيرها من المناطق التي جرت فيهـا أهم أحـداث التـاريخ الإسـلامي، بـل التـاريخ الـديني للعالم.

ففي الشـرق الأوسـط طـور سـيناء الـذي نـاجى فيـه موسى عليه السلام ربـه.. وفيـه بيت لحم الـذي ولـد فيـه المسيح.. وفيـه الناصـرة والجليـل وغيرهـا.. والـتي طـاف فيها المسيح يبشر برسالة الله، وبخاتم أنبيائه.

وإذا رجعنا للكتاب المقدس لا نكاد نجد بقعة في ذلك الشــرق الأوســط إلا وضــمخت بعطــر نــبي من الأنبيــاء الكرام، أو رسالة من رسالات الله.. والـتي تهفـوا إليهـا لا قلوب المسلمين فقط، بل قلوب كل المؤمنين في العالم

أجمع.

فهل هذا الشرق المكرم بنور النبوة شرق أوسخ؟.. وهل الله تعالى بارك في الشرق الأوسخ؟.. ألم تقرؤوا قوله تعالى، وهو يبين بركاته على هذا الشرق: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: 81]؟

فهل تحولت بركات الله في أذهانكم وقلوبكم إلى قاذورات؟

حددوا جيدا بوصلتكم.. فهل أنتم مع الله، ومع قرآنه، ومع كتبه المقدسة، ومع أنبيائه الكرام.. أم أن حبكم لأجدادكم وتراثكم جعلكم تتبرؤون من كل ذلك.. ولا تضعون لبركات الله وتقديساته واختياراته أي اعتبار؟

لماذا أكتب في الرد على الدعوة الأمازيغية؟

سؤال سألته لنفسي قبل أن يسألني عنه غيري، ذلك أنه لا يجوز لامرئ أن يقدم على أمر قبل أن يسأل عن دوافعه لذلك.. وهل هي شرعية وواقعية، أم أن لحظوظ النفس مجال فيها؟

وقبل أن أجيب عن ذلك، وحتى لا ﴿أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ [يوسف: 53]، فأدعي الذاتية المحضة، أذكر بأن للجانب النفسي تأثيرا كبيرا في ذلك.

ويبدأ الجانب النفسي عندي بمقارنتي بين من عرفتهم من الأمازيغ في فترة شبابي، عندما كنت في الزاوية، وكان يأتينا الطلبة من كل مكان، وخصوصا من بلادي القبائل والأوراس، حينها كنت أراهم عاشقين للعربية يتحدثون بها، ويكتبون، ويحفظون، وليس فيهم أي ذرة من العنصرية أو الشعوبية.. بل كانوا يتحدثون فيما بينهم بالأمازيغية لكنهم مع سائر الناس يتحدثون بالعربية، ولم نكن نشعر بأي تفرقة أو تمييز.. فاختلاف الألسن سنة الله في خلقه.

لكني عندما ذهبت إلى الجامعة وجدت أصنافا كثيرة ممتلئة بالشعوبية المقيتة، لدرجة أنها تحقد على العربية، وعلى كل شيء له علاقة بها.. حتى أن بعض طلبتي في مناقشة علمية جرت بيننا، قال لي بكل قسوة: سنطردكم من أرضنا.. وقالت لي طالبة أخرى، وهي غاضبة: أنا لا أفهم اللغة التي تتحدث بها لأنني أمازيغية.. حينها عرفت أن سبب عدم فهمها للعربية ليس لعجزها، ولا لغموض

العربيـة، ولكن لأن هنـاك من شـحنها أيـديولوجيا، فجعلهـا تنفر من العربية، ومن الأستاذ الذي يدرس بها.

ولهذا فإنه لو كان كل الذين عـرفتهم من الأمـازيغ، أو من الذين يتحدثون بالأمازيغية من أمثال أولئـك الطلبـة أو أولئــك الأســاتذة الــذين لا يــرون في العربيــة مزاحمــا للأمازيغية، لما وقفت هذا الموقف.

هذا هو الجـانب النفسـي الـذي ذكـرت بعض النمـاذج عنه.

أما الجانب الشرعي، وهو الأساس والدافع الرئيسـي، فهو أني رأيت أن بغض العربية تحت أي شعار هـو مـدعاة لبغض الإسـلام والنفـور منــه.. فكيـف يمكن لشـخص أن يستسيغ قراءة القرآن الكـريم ويتلـذذ بهـا، وهـو نـافر من حروفها ومعانيها؟.. وكيف يردد أحاديث رسول الله أو تلك الأدعية الشريفة التي جاء بها، وهو يحمل الضغينة عليها؟

للأسـف لم تبـق الـدعوة الأمازيغيـة دعـوة للغـة، بـل صارت دعـوة شـعوبية ممتلئـة بالحقـد والكراهيـة للعربيـة نفسها، بالتهوين من شأنها وتحقيرها وعـدم اعتبارهـا، بـل وضـعها والأمازيغيـة في كفـة واحـدة.. وهـل يمكن ذلـك.. عقلا أو نقلا أو واقعا؟

هل يمكن للغة أي كانت أن تقارن باللغة التي اختارها الله تعالى لينزل بها آخر كلماته المقدسة لعباده؟

وهل يمكن لأحد يهيم في حب رسـول اللـه، وحب آل بيته الطـاهرين، وصـحابته المنتجـبين أن يـرغب عن لغتهم إلى غيرها أي كانت، إلا إذا كانت وسيلة لعلم من العلــوم، أو تواصل مع شعب من الشعوب؟

توضيح بشأن ردودي على الدعوة الأمازيغية

أولا أتقـدم بالشـكر الجزيـل لكـل من علـق على منشوراتي المتعلقة بالدعوة الأمازيغيـة، سـواء كـان معي فيها، أو كـان ضـدي، وأنـا لم أحـذف أي تعليـق، حـتى لـو اختلفت مع صاحبه اختلافا شديدا إلا بعض التعليقات الـتي رأيت فيهـا صـيغة تحريضـية مباشـرة، أو رأيت فيهـا قـذفا لأعراض الناس.. فذلك مما لا يجوز لي أن أتركـه، أمـا مـا عداه، فقد تركته كنموذج للاختلاف الفكري الذي لا يفسـد للود قضية.

وأحببت أن أنبـه هنـا الكثـير ممن أسـاءوا فهمي إلى أني لا أقصد بتلك الردود قوما بعينهم، ولا لغة بعينها، وإنما أقصد أيديولوجية تنتشر كانتشار النار في الهشـيم، تحمـل طابعا عنصريا، لا يختلـف عن الطـابع الصـهيوني والنـازي، تحـرض على العربيـة والعـرب، وتحتقرهمـا، وتعتـبر الأمازيغيـة والأمـازيغ قومـا أوروبـيين وفـدوا من الشـمال، وأن ما أصـابهم من مصـائب لم يكن إلا بسـبب ارتبـاطهم بالشرق والعـرب والعروبـة.. وهي مقدمـة لنفي الارتبـاط بالإسلام نفسه.

ولـذلك كتبت مـا كتبتـه ــ بنـاء على المنشـورات الموجـودة على النت ــ وليس على شخصـيات أعرفهـا.. فكـل الـذين أعـرفهم من الأمـازيغ أو حـتى من المهتمين باللغة الأمازيغية ناس متدينون محترمون، لا يختلفـون عن مولـود قاسـم وعثمـان سـعدي وغيرهمـا من الـذين اسـتطاعوا الجمـع بين العربيـة والأمازيغيـة، ولم يـروا أي صراع بينهما.

ومن شك فيما أذكره فليزر المواقـع الأمازيغيـة الـتي تحمـل طابعـا أيـديولوجيا لـيرى النازيـة والصـهيونية تلبس لبـاس الأمازيغيـة، كمـا لبسـت في إربـل وكركـوك لبـاس الكردية..

بـل إن من تلـك المواقـع من يعتـبر اهتمامنـا بقضـايا الأمـة كالقضـية الفلسـطينة هروبـا من واقعنـا.. فالقضـية الأمازيغية عندهم هي القضية الأم، لا القضية الفلسطينية.

لذلك أرجو من الذين نصحوني بالكف عن الكتابـة في مثـل هـذا أن يـزوروا تلـك المواقـع أولا.. وليحكمـوا علي بعدها بما يشاءون.

أمـا أنـا.. فكمـا رددت على المتطـرفين في سلسـلة [الـدين والـدجل]، وعلى الملاحـدة الجـدد في سلسـلة [الإلحاد والدجل]، فإني أرى أيضا أن هذه معركـة لابـد أن أكون فيها، ولابد أن يشاركني كل ناصح للأمة حتى نحفـظ هويتها وحقيقتها التي يتلاعب بها هؤلاء بأسماء مختلفة.

ولـذلك لا نريـد من أحـد أن يحـدد لنـا المواضـع الـتي نكون فيها.. فحيث يجب أن نكون سنكون.. وحيث يقتضي التكليف الشرعي منا أن نبين الحقيقة، فسنبينها لا نخـاف في الله لومة لائم.

هذا الكتاب

[دعوهـا، فإنهـا منتنـة].. ليسـت هـذه الجملـة عنوانـا صـحفيا مثـيرا، ولا كلمـة اعتباطيـة خاليـة من أي دلالـة حقيقية.. بل إنها كلمة تعبر عن حقيقة من حقائق الوجود، وسنة من سنن الكون.

ذلـك أن الـذي نطبـق بهـا ليس صـحفيا، ولا كاتبـا، ولا باحثا، ولا فيلسوفا، ولا عالم اجتماع، ولا عـالم نفس.. بـل الذي نطق بها هـو من لا ينطـق عن الهـوى.. رسـول اللـه ﷺ.. ذلك الذي لا يقول إلا الحق في رضاه أو غضبه..

ولذلك فإنها تعبر عن الحقيقة بكل معانيها وتجلياتها..

فالذي يدعو إلى العصبية والعرقية والهوية التي تميزه عن سائر إخوانه في الإنسانية إنما يدعو في الحقيقـة إلى القذارة والنتانة.. ذلك أنـه يـدعو إلى عـالم الطين والحمـأ المسنون، ويغفل عن الروح والعوالم العلوية التي صدرت منهـا.. لـذلك تفـوح من أحاديثـه رائحـة الطين والحمـأ المسنون..

ولهذا دعا رسول الله ﷺ إلى الترفع عن هـذا العـالم، والنظر إلى الإنسان باعتبار جـوهره وحقيقتـه الروحيـة، لا حقيقته الجسدية الـتي يـؤدي بهـا دوره التكليفي المـؤقت في هذه الحياة الدنيا.